# رحلة التقرب

## سبيلك إلى رضى الله تعالى



د. خالد بن عبدالرحمن الجريسي

# رحلة التقرب

## سبيلك إلى رضا الله تعالى

تأليف

د. خالد بن عبد الرحمن الجريسي

ح دار الألوكة للنشر والتوزيع، ١٤٤٧هـ

*فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر*

الجريسي، خالد بن عبدالرحمن بن علي

رحلة التقرب./ الجريسي، خالد بن عبدالرحمن بن علي - ط١. الرياض ١٤٤٧هـ

١٦١ص؛ ١٧×٢٤

رقم الإيداع ١٤٤٧/١٤٠٩٧

ردمك ٩٧٨-٦٠٣-٩١٢٢٨-٧-٦



الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م



# إهداء

أقرِّب كتابي هذا تواضعًا بين يدي والدَيّ؛ سبب وجودي ومَجْمَع الإحسان إليّ، عسى ربِّي - جلَّ في عُلاه - أن يتقبَّل منِّي يسيرَ بِرٍّ بهما لديّ، وأن يَمُنَّ برضاهما عليّ، وأن يجعلَ ذاك الرِّضى سبيلَ تقرُّبٍ إليه، وذُخرًا لي إذا وقفت بين يديه؛ إنه - سبحانه - وليُّ ذلك والقادر عليه.



﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨
فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩﴾

[الواقِعَة: ٨٨-٨٩]

# مُقَدِّمة

الحمد لله الذي مَنَّ على آدمَ فقرَّبه إليه من قبل أن يتقرَّب؛ سوَّاه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه الأسماء كلَّها، وأَسْجَدَ له كلَّ مَلَكٍ مقرَّب، وأتمَّ نعمته عليه فجعل سيِّدَ ولدِه عبدَه ورسولَه محمَّدًا أقربَ مَن إليه تقرَّب، خاتم النبيِّين، وإمام المرسلين ومقدَّمَ المقرَّبين، صلوات ربِّي وسلامه عليه ما سجد عبدٌ لله، وإلى جلاله تقرَّب.

وبعد، فقد أحسن بي ظنًّا إخوةٌ فضلاءُ، أحسب أنهم ممَّن آثر الآخرة على الأولى، واللهُ حسيبُهم، فطلبوا مني - طلبَ محبَّةٍ وأخوَّة - بيانَ صُنوف قُرُباتٍ إلى الله تعالى؛ ليَجِدُّوا السَّيْرَ إليه، ويطلبوا الزُّلفى لديه، فيكونوا بذلك مفتاح خير لمن أراد مثلَ مُرادِهم، وسببَ تيسير لمن سلك مسلكهم، فاستحسنت مطلب المحبِّين الفضلاء، وأجبتهم إليه على قِصَرِ الباع وقلَّة الزاد - حبًّا بهم وكرامةً لهم - مُستحضِرًا نيَّة خدمة أولئك العباد المتقرِّبين، مستجمعًا لهم كتابًا سمَّيته ( رحلة التقرب )، عسى أن يُلحِقني اللهُ - منَّةً منه وفضلًا - برَكْبِهم المبارك، وقد بيَّنت فيه ما وسعني من: فضل التقرُّب وأدلَّته، وطريقه، وسبل تحقُّقه، ومراتب أهله، وبعض عاجل بُشراهم.

وعليه، فقد أتت فصول الكتاب - بعون الله الملك الوهَّاب - ثلاثة كالآتي:

**الأول**: التقرُّب؛ معناه، وفضله، وفقهُ نصوصٍ في شأنه.

**الثاني**: العبادة طريق التقرُّب الأوحد.

**الثالث**: معارج التقرُّب، وبعض كرامات أهله.

هذا، وإني سائل ربّي القريبَ المجيب، أن يكتبَ لعملي هذا قَبولًا عنده، وأن يجعله قُرْبَةً إليه، وأن ينفع به أمَّة الإسلام المصطفاةَ عنده، وأن يتقبَّل تقرُّبها إليه، ويكتب لها الزُّلفى لديه.

**د. خالد بن عبد الرحمن الجريسي**



# الفَصْلُ الأَوَّلُ

## التقرُّب؛ معناه، وفضله، وفِقّهُ نُصوصٍ في شأنه

## أولاً: معنى التقرُّب

**أ- التقرُّب في اللغة:**

هو أصلٌ يدلُّ على خلاف البُعُد، يُقال: قَرُبَ يَقْرُبُ قُرْبًا إذا دنا دُنُوًّا، والقِراب: مقاربة الأمر، وتقول: ما قَرُبْتُ هذا الأمرَ ولا أَقرَبُه، إذا لم تُشَامَّهُ، ولم تَلْتَبِسْ به(١).

والتقرُّب: التدنِّي إلى شيء، والتوصُّل إلى إنسانٍ بقُرْبَةٍ، أو بحقٍّ. والتقريب: ضربٌ من العَدْوِ؛ يُقال: قَرُبَ الفَرَسُ إذا رفع يديه ووَضَعَهما معًا في العَدْو. وقرَّبته تقريبًا: أَدْنَيْتُه، وهو يَقْرُبُ حاجةً، أي: يطلبها. والقَرْبُ: سيرُ الليل. وقرَّب قِرابًا وأَقْرَبَهُ: عَمِلَه. والمتقرِّبُ المُجِدُّ العَجِل، والمَقْرَبَةُ: طريقٌ صغيرٌ يَنْفُذُ إلى طريق كبير. والقُرَابَةُ الفِراسة(٢). وقال الزَّبِيدِيُّ: المُقْرَبَةُ: الفَرَسُ التي تُدْنَى وتُقَرَّبُ وتُكرم ولا تُترك، والمُقْرَبَةُ من الإبِل هي التي حُزِمَتْ للركوب. والقَرْبُ: السَّير بالليل، وقيل: السَّير إلى الماء(٣).

يتبيَّن مما تقدَّم أن مادة هذه الكلمة تدلُّ على الدنوِّ، والتوصُّل، والمبادرة، والطلب، والسَّير الحميد المبكِّر، واختصار الطريق، والتبصُّر بالفراسة، والإكرام، والتهيؤ للمسير، وقصد الحاجة المُلِحَّة .

**ب - التقرُّب في الاصطلاح.**

القُرْبُ: القيام بالطاعات. والقُرْبُ المصطلَح هو: قُرْبُ العبد من

---

(١) انظر: "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس، أصل: القاف والراء وما يثلِّثهما، (ق ر ب).
(٢) انظر: "لسان العرب" لابن منظور [١١/ ٨٧]، مادة (قَرُب).
(٣) انظر: "تاج العروس من جواهر القاموس" [١/ ٤٣٤]، مادة (قَرُب).

ربِّـه الله تعالى - بكلِّ ما تُعطيه السعادة(١)- لا قُرْبَ الحقِّ - سبحانه - من العبد؛ فإنه من حيث الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، هو قربٌ عامٌّ، سواء كان العبد سعيدًا، أو شقيًّا(٢).

**وعليه**، فإنَّ التقرُّب هو: قصد العبد القربَ من الله تعالى، بسلوك الطريق الموصل إلى محبته - سبحانه - ورضاه، وذلك بعمل ما وَسِعَه من الطاعات (واجبِها ومُستحبِّها)، واجتناب المنهيَّات (مُحرَّمها ومكروهها)، مع ترك التكثُّر من المباحات.

قال رسول الله ﷺ: «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأْتُوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم» [البخاريُّ، ومسلمٌ بلفظه].

وبيِّن لكلِّ ذي لُبٍّ المناسبةُ شِبْهُ التامَّة بين المعنيَيْن اللغويِّ والاصطلاحي؛ فالمتقرِّب مُجِدٌّ، متفرِّس بالطريق الأقرب الموصل، حازم أمرَه دومًا في القيام بالطاعات واجتناب المنهيات؛ أكثرُ سيرِه ليلًا، مُكْرَمٌ ذو مقام عند ربِّه.

**ميزان التقرُّب**: لا يُتقرَّب إلى الله تعالى إلا بما شرعه سبحانه، فلا يُتقرَّب ألبتةَ بما أحدثه الناس في الدِّين؛ سواء كان في الأقوال، أو الأفعال، أو الاعتقاد، وسواء كان ذلك بالفعل أو بالترك، فكلُّ ذلك ليس له محلٌّ في التقرُّب المشروع، بل هو يُفضي إلى خلاف قصد التقرُّب، فيكون سببًا في البُعد، ومحلًّا لذمِّ صاحبه، وسبيلًا لردِّ عمله.

---

(١) (بكلّ ما تعطيه السعادة)، أي: بكل وسيلة ميسَّرة له؛ لكونه مكتوبًا من أهل السعادة بعد نفخ الملك الرُّوح فيه. أو بكلِّ ما يُعطى من السعادة بالقرب من ربِّه.

(٢) انظر: التعريفات للجرجاني، ص١٧٥، مصطلح (القُرْب).

## ثانيًا: فضل التقرُّب

لا ريب في أنَّ خُلَّصَ العباد وخواصَّهم هم الذين أدركوا أنَّ غاية الوجود، والشرفَ الأعظم فيه هو السعيُ إلى بلوغ مقام القرب من الله جلَّ جلالُه، وأنّ ذلك هو أجلُّ مقصود لذاته؛ فقد وصف الله تعالى بهذا المقام ملائكتَه تشريفًا لهم وإعلاءً لشأنهم، فقال سبحانه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النِّسَاء: ١٧٢]، وأثنى - تبارك اسمُه - على عبده ورسوله عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام بأنه مقرَّب قُرْبَ النبوَّة والرسالة فقال - عزَّ من قائل -: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٤٥]، بيدَ أنَّ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ قد تسنَّم ذِروة سَنام مقام القُرب، فهو - عليه الصلاة والسلام - أقربُ المقرَّبين وإمامُهم، فلا يُداني مقامَ قُربِه أحدٌ من الخلق، بل هو أفضل الخلق على الإطلاق، قال ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ يوم القيامة، وأوَّلُ مَن ينشقُّ عنه القبر، وأوَّل شافع، وأوّل مشفَّع» [مسلم]، (وهذا الحديث دليلٌ لتفضيله ﷺ على الخلق كلِّهم؛ لأنَّ مذهب أهل السُّنَّةِ أنَّ الآدميِّين أفضل من الملائكة، وهو ﷺ أفضل الآدميِّين وغيرِهم)[1]، وهو - صلوات ربِّي وسلامُه عليه - مَن أخذ اللهُ له عهدًا مؤكَّدًا على النبيِّين كلِّهم بالإيمان والنُّصرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج، للنووي (٧/ ٤٧٣).

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

هذا، وقد فصَّلت في هذا الشأن العظيم، شأنِ نبيِّنا ﷺ لأُدلِّل على أمرين؛ أولهما: أنَّ مقام القُرب وفضلَه مهما تنافس في تحصيل درجاتِه المتنافسون فإنهم - جزمًا - دون مقام القُرب النبويِّ، وثانيهما: أن أدنى مقام من مقامات القُرب لن يُنال إلا بطريق اتباع النبيِّ ﷺ.

وأَشرع بعدها في ذكر شيء من فضل التقرُّب ما استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ حيث إن ذلك الفضلَ يكاد ألَّا ينحصر:

- تيقُّظ المتقرِّب من غفلة أهل الدنيا المنشغلين بها؛ ليصيرَ متنبِّهًا إلى معرفة غاية وجوده.
- مبادرته إلى التوبة، ومصاحبته لها حالَ الزَّلل، فلا يزال يتوب إلى ربِّه حتى يُنْهِيَ بذلك عُمُرَه!
- حيازته التوفيقَ المستدام إلى الطاعة، والثبات عليها، والازدياد منها.
- تدرُّج العبد في مكافأته من منزلة حبِّ الله له بأدائه الفرائض، إلى منزلة المحبوبيَّة الخاصَّة بأدائه النوافل، إلى منزلة التمكُّن في تلك المحبوبية بالازدياد من النوافل، حتى يكون في معيَّة الله الخاصة، فتصيرَ خطراتُ قلبه، وهوى نفسه، ومسالكُ جوارحه، دومًا إلى الخير؛ وليكون حبُّ الطاعة وبغض المعصية سجيةً مستدامة متمكِّنة في كيانه، فلا يجد لذةً إلا في عمل طاعة، أو تَرْكِ منكر -مهما صَغُر-، ثم لا يزال حالُه في ترقٍّ حتى يكون بعدها مُجاب الدعوة؛ لا يسأل اللهَ شيئًا إلَّا أعطاه، ولا استعاذ بالله من شيء

إلَّا أعاذه، حتى يتسنَّم بعدها مقامَ كُرْهِ الموت، مخافة أن ينقطع عملُه في الازدياد من التقرُّب بانقطاع عمله في حياته، حتى إنَّ الله تعالى يكره أن يسوء عبدَه هذا ومحبوبَه، بإماتته، لما يلحقه بنزول مصيبة الموت به؛ من: صعوبة وكَرْبٍ، ومفارقة أهل ومحبوب وصحب ! لكن لمّا كان لا بُدَّ للمقرَّب من موت، شأنه في ذلك شأن كلِّ مخلوق، يُميته ربُّه لينقَله من دار المنغِّصات إلى دار المسرَّات.

قال النبيُّ ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه سبحانه: «إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أَحَبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه: كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصِر به، ويدَه التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه. وما تَرَدَّدْتُ عن شيء أنا فاعلُه تردُّدي عن نفس المؤمن؛ يكره الموتَ وأنا أكره مساءَته» [البخاري].

- ومن أثر تلك المحبوبية العظمى أنْ يتبعَها حبُّ جبريلَ عليه السلام لهذا العبد، وحبُّ ملائكة السماوات، بل حبُّ أهل الأرض له إنسًا وجِنًّا !

قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إني أحبُّ فلانًا فأَحِبَّه، قال: فيُحبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماء فيقولُ: إن الله يحبُّ فلانًا فأَحِبُّوه، فيحبُّه أهلُ السماء، قال: ثم يُوضع له القَبُولُ في الأرض» [متفق عليه].

- أن يتضاعفَ ثوابُ المتقرِّب؛ أضعاف اجتهاده هو في عمله، فيبلغ مقصوده من غير مزيد عناء، بمضاعفة أجره، وتضعيف إكرامه وتوفيقه للازدياد من الطاعة وتقويته على حُسن أدائها .
- أن يكون محتسَبًا عند الله تعالى في عداد خاصَّةِ العباد المقرَّبين المُخْلَصين؛ المتنافسين المسارعين في الخيرات، السابقين بها .
قال سبحانه : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقِعَة: ١٠-١١]
- أن يحبَّ اللهُ لقاءَه، وأن تبشِّره الملائكةُ عند موته برحمة الله ورضوانه .

قال النبيُّ ﷺ: «مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كره لقاءَ الله كره الله لقاءَه»، قالت عائشة: إنا لنكره الموت، فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموتُ بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيءٌ أحبَّ إليه مما أمامه فأحبَّ لقاء الله، وأحبَّ اللهُ لقاءَه، وإن الكافر إذا حُضِرَ بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيءٌ أكرهَ إليه مما أمامه، فكره لقاءَ الله، وكره الله لقاءَه» [متفق عليه].

وبالإجمال، فإن المتقرِّب يحيا في دنياه حياةَ الفرح والسرور، وقرّةِ العين بالله تعالى، وهي أعلى مراتب الحياة، كما وصفها ابن القيم رحمه الله بقوله: (أطيب الحياة على الإطلاق حياةُ هذا العبد؛ فإنَّه مُحِبٌّ محبوب، متقرِّب إلى ربِّه، وربُّه قريب منه)[1].

أما في الآخرة؛ فمن مبدأ تبشير الملائكة له حالَ احتضاره - وقد

(١) انظر: مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفَاتِحَة: ٥] لابن القيِّم [٤/ ١٤٠]. وقد قسَّم الإمام رحمه الله مراتب الحياة عشرًا، حوى بها أنواع الحياة في الدارين. فانظرها إن شئت؛ فهي جِدُّ نافعة.

تقدَّم دليلُه - إلى ما لا غاية بعده؛ وهو النظر إلى ربِّه - سبحانه - ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. مع تفضُّل الله على عبده بمنزلة مختصَّة بالمقرَّبين في تنعُّمهم تعلو منزلة الأبرار أصحاب اليمين، وقد حفلت نصوص القرآن والسنَّة بجمٍّ غفير من ذلك؛ أذكر منها طائفةً يسيرة:

- عند الاحتضار، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ [الواقعة: ٨٨-٩١].
- جنَّتان مختصَّتان بالمقرَّبين، من دونهما جنَّتان لأصحاب اليمين - كما ذهب إليه عامّة المفسِّرين -، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٦٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «جنتان من ذهب؛ آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة؛ آنيتهما وما فيهما» [متفق عليه].

ولك - أخي القارئ - أن تتأمَّل في صنوف النعيم في تلك الجنات، لتتبيَّن بالمقارنة علوَّ ورفعة منزلة المقرَّبين؛ فجنَّتان ذواتا أفنان، أغصانهما طوال مستقيمات، ذوات ظلال ممتدة، في كلِّ غصن منها فنون متنوِّعة من الفاكهة، وتلك الأغصان ذوات فضل وسعة على ما سواها، ومن دون تينك الجنتين جنتان أُخريان قد مالت في لون خُضرتها إلى السواد من عظيم الرَّيِّ وتدفُّعه واستمراره، وعَيْنا جَنَّتَيْ المقرَّبين دائمة الجريان لا تنقطعان، لكنْ تفور عينا جنَّتيْ أصحاب اليمين تنضح عليهم كما ينضح رشُّ المطر، وفاكهة المقرَّبين، من كلِّ

نـوعٍ يُتفكَّه به صنفان يُستلذُّ بكلِّ نوع منهما، وفاكهة الأبرار فيها من كلِّ الأنواع صنف، ويكثر فيهما النخل والرمَّان لمزيد حُسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه، وفُرُشُ المقرَّبين حَشْوُها وبطانتها من خالص سميك الحرير؛ فإن كانت البطائن من هذا الإستبرق فكيف تكون الظهائر؟! قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: ١٧]؛ فهل هي من سندس حرير ناعم رقيق؟ أم هي من نور جامد، كما قال الحسن البصريُّ؟ أم أنَّ مادة ظاهرها لم تُبيَّن تشويقًا؛ ليذهب العقل في تصوُّرها كلَّ مذهب؟ كلُّ ذلك محتمل ليَعْظُمَ الحافز على سلوك مسلك التقرُّب. أما فُرش الجنتين الأُخريين ففُرش مرتفعة وبُسُطٌ يُتعجَّب من حُسنها مبثوتة في أرجاء القصور، ووسائدُ مصفوفةٌ خُضر. أما حُور المقرَّبين فهنَّ قاصرات الطَّرف، يَقْصُرْنَ أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم تعظيمًا لهم وإجلالًا، وحُور أصحاب اليمين مقصورات محبوسات على أزواجهن لا يُردن غيرهم[(١)].

وقل مثلَ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسَان: ٥-٦] المقرَّبون الموصوفون بـ (عباد الله) يُجرون تلك العين إلى حيث يريدون، وينتفعون بها كما يشاؤون، ويتبعهم ماؤها إلى كلِّ مكان يريدون وصولَه إليه ! فهم يشقُّونها شَقًّا كما يُشَقُّ النهر ويُفجر إلى هنا وهنا؛ قال الحسن: يقودونها حيث شاؤوا، وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم ! لكن أصحاب

(١) انظر في هذه المقارنة بين الجزاءَيْن فتحَ القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام محمد بن علي الشوكاني، ص ١٧١٨ وما بعدها.

اليمين، المعبّر عنهم: (الأبرار)، يُمزج لهم من تلك العين المسمّاة (كافورًا)، تشبيهًا لها للكافور في بياضه وطيب رائحته، وبرده، فريحها ريح الكافور لا طعمها، كما قاله عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ يُمزج للأبرار في خمر كؤوسهم المحمولة إليهم بماء هذه العين.

ولك أن تلحظَ - ختامًا - فرقًا بين التعبير في قوله تعالى: ﴿مِن كَأْسٍ﴾، وقوله سبحانه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾؛ فالمقرَّبون العينُ عندهم يتلذَّذون بالنظر إليها فضلًا عن شربهم منها، لأن الباء تُفيد الإلصاق والوجود في المكان، لكنَّ الأبرار تُنقل إليهم، ويُمزج شرابُ كؤوسهم من تلك العين؛ دلالة على رفعة منزلة المقرَّبين(١).

هذا شيء مما جاء في كتاب الله، من فضل نعيم المقرَّبين وعلوِّ منزلتهم، وعظيم أجرهم، أما في السنَّة النبويَّة، فسأقتصر على ذكر حديث جامع في ذلك:

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الجنة يَتراءَون أهلَ الغُرَفِ مِن فوقهم، كما يتراءَون الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ - أي: شديد الإضاءة، مع كونه بعيدًا، ذاهبًا في الأفق -، من المشرق أو من المغرب؛ لتفاضُل ما بينهم، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلُغُها غيرُهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين» [البخاريُّ، ومسلمٌ باختلافٍ يسير].

ولتنظر إلى قوله ﷺ: «لِتفاضُلِ ما بينَهم»، والمعنى: أنَّ أهل الجنة تتفاوت منازلُهم بحسب درجاتهم في الفضل، حتى أنَّ أهل الدرجات

---

(١) استفدت ذلك من كلام الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرّائي، في حلقة مسجّلة له - حفظه الله - ضمن سلسلة حلقات تلفازية بعنوان: (لمسات بيانية).

العُلى لَيراهم مَن هو أسفل منهم كالنجوم[١].

ثم انظر إلى قوله ﷺ: «رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين» فالمعنى: أنهم آمنوا بالله حقَّ الإيمان، وصدَّقوا المرسلين حقَّ تصديقهم، وإلا لكان كلُّ من آمن بالله وصدَّق رسله وصل إلى تلك الدرجة، وليس كذلك؛ والسرُّ فيه: أنه قد يبلغها مَن له عمل مخصوص، ومن لا عملَ له كان بلوغ تلك المنزلة برحمة الله تعالى[٢].

والمتحصَّل من كلام الشرَّاح لهذا الحديث ما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في قوله: (المقصود أن نقول: انقسام أولياء الله إلى عامٍّ وخاصٍّ تقسيم صحيح؛ لكنَّ الخواصَّ هم السابقون المقرَّبون، والعامَّة هم الأبرار أصحاب اليمين)[٣]، وعلى هذا الفهم الثاقب الصائب تُحمل سائرُ النصوص المتعلقة بتفاضل نعيم أهل الجنة.



(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (٦/ ٣٧٧).

(٢) انظر أيضًا: فتح الباري (٦/ ٣٧٨).

(٣) جامع الرسائل لابن تيمية، رشاد سالم (١/ ٧٣)، وانظر - إن شئت تفصيلًا - "طريق الهجرتين وباب السعادتين"، لابن القيّم (ص٢٩٥ وما بعدها)؛ فقد عقد فصلًا نفيسًا في مراتب المكلَّفين في الدار الآخرة، وطبقاتهم فيها.

# ثالثًا: فِقْهُ نصوصٍ في شأن التقرُّب

## أ- التقرُّب في الكتاب العزيز.

إن المتتبِّع لورود لفظ (القُرب) في القرآن الكريم، لَيعلم أنَّ هذا اللفظ ومشتقاتِه قد ورد على معانٍ عديدة؛ أذكر منها - مثالًا لا حصرًا-:

١- **القرب** الظَّرفي (زمانًا ومكانًا).
فمن قرب الزمان قولُه تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١].
ومن قرب المكان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: ٣٥].

٢- **القرب** النَّسَبِي (القرابة)؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النِّساء: ٨].

٣- **القرب**، بمعنى إجابة الدعاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٤- **القرب**، بمعنى مقاربة النساء (الجماع)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٥- **القرب**، بمعنى الشروع (البدء) في الصلاة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّساء: ٤٣].

٦- **القرب**، بمعنى الأمر المرجوِّ الحصول، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦-٧].

٧- **القرب**؛ بمعنى الأمر غير الشاقِّ (سهل التحقُّق)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ [التوبة: ٤٢].

٨- **القرب**؛ بمعنى ميل القلب، ولين الجانب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

٩- **القرب**، بمعنى التقرُّب إلى الله - سبحانه - بكل وسيلة مقرِّبةٍ إليه. وهذا ما يعنينا في مقامنا هذا، وسأذكر - بعون الله - طائفةً من النصوص القرآنية التي تقرِّر هذا المعنى، أو تَنْحُو مَنْحاه، أذكرها مرتَّبة بترتيب سور المصحف، ثم أُتبع كلَّ نصٍّ منها بنقل بعض ما ذَكَرَهُ أهلُ العلم في معناه، مستخلصًا مما ذكروه شيئًا من فقه التقرُّب.

**قول الله تعالى**: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

### ❖ بعض ما استنبطه أهل التفسير:

المعنيُّ بالقُرب هنا أن المسيح عليه السلام هو ممَّن يقرِّبه الله تعالى يوم القيامة فيُسْكِنُه في جواره، ويُدْنِيه منه(١).

أن قُرْبَه عليه السلام في الدار الآخرة في أنه يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل الله منه شفاعته أُسْوَةً بإخوانه من أولي العزم صلوات الله

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، [٣/ ٢٧٠].

وسلامه عليه وعليهم أجمعين[(١)].

المسيح عليه السلام له الوجاهة والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق، ومع ذلك فهو عند الله من المقرَّبين الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجةً، وهذه بشارة لا يُشبهها شيء من البشارات[(٢)].

**وعليه، فإن مِن فِقْهِ التقرُّب أن يُعلم:**

أن للمقرَّب مقام عظيم يوم القيامة، وأن له شفاعة عند ربِّه فيمن يأذن الله له فيه، وأن شفاعته هذه مقبولة عند الله تعالى، وأنه ممن يُعلي الله درجاتِه، ويهبه البشاراتِ في حياته الدنيا، وفي آخرته.

**قول الله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ [آل عمران: ١٨٣].

### ❖ بعض ما استنبطه أهل التفسير:

إن أكلَ النارِ لما قرَّبه أحدُهم في ذلك الزمان، كان دليلًا على قَبول الله منه ما قرَّب له، ودلالة على صدق المقرِّب[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [١/٤٤٦]. وأولو العزم - عليهم الصلاة والسلام - خمسة من الرسل، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ [الأحزاب: ٧] ويُشار - هنا - إلى أنه ليس ثمة دليل على حصر أولي العزم من الرسل في الخمسة المذكورين، لكنْ - بلا ريب - فإن أولئك الرسل هم أول مَن يدخل تحت هذا الوصف، وقد رجّح العلامة الشنقيطيُّ في " أضواء البيان" أن المراد بأولي العزم هم الخمسة المذكورون عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (تفسير السعدي) ص ١٣٢.

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) [٣/ ٥٣٨].

المعنى: لا يُوهنك تكذيبُ هؤلاء لك؛ فلك أسوة بمن قبلك من الرُّسل، الذين كُذِّبوا مع ما جاؤوا به من البيِّنات؛ وهي الحُجج والبراهين القاطعة، وكذلك بنار تأكل القرابين المتقبَّلة. ثم قُوبلوا بالتكذيب والمخالفة والمعاندة والقتل![١]

قالوا - أي: اليهود -: يا محمَّد، تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولًا، وأنزل عليك الكتاب، فإن جئتنا بقُربان تأكله النار صدَّقناك؛ لأنَّ هذا - بزعمهم - أنه مما عَهِدَ الله إليهم به ![٢]

زعم أولئك المُفْتَرُون أن الله تقدَّم إليهم وأوصاهم أن لا يؤمنوا - يصدِّقوا - برسالة رسول حتى يأتيَهم بقُربان تأكله النار؛ فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية (علامة صدق) الرسل بما قالوه[٣].

**وعليه، فإن مِن فِقْهِ التقرُّب أن يُعلم:**

- أن المتقِّرب كلما ازدادت درجة تقرُّبه، واجتهاده في صلاحه، وبَذْلِ وُسْعِه في الإصلاح، فضلًا عن صلاحه، ازداد أذى أهل الأهواء له، وقد تصل إلى إيذائه في جسده، فضلًا عن تشويه سمعته بالكذب وادِّعاء افترائه على الدِّين، تنفيرًا للناس عنه، وزجرًا لهم عن التأثُّر بدعوته !
- أنَّ شرط قَبول عمل المتقرِّب الموحِّد: الصدق التامُّ في نيّته، والإخلاص المحض في توجُّهه.
- أن المتقرِّب لا يَضْعُفُ عزمه، ولا ينقص يقينه، ولا يتأثَّر عمله،

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [١/ ٢٧٢].
(٢) معالم التنزيل (تفسير البغوي) [١/ ٢٩٩].
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (تفسير السعدي) ص١٥٨.

مهما بلغ التشكيك بصدقه في تقرُّبه؛ حتى لو تلوَّن المفترون بصبغة التديُّن، وأنهم يفقهون حقيقة الدِّين، وقد غفل هو عنه ! فأولئك المكذِّبون للرسل لم تكن حُجَّتُهم إلا أن قالوا: إنهم هم الملتزمون بعهد الله إليهم - بزعمهم - حتى إذا جاءهم مَن يَفِي بعهدهم المزعوم كذَّبوه، بل قتلوه، وواقع حالهم يشهد بذلك !

**قول الله تعالى:** ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النِّسَاء: ١٧٢].

**❖ بعض ما استنبطه أهل التفسير:**

لن يأنف ولن يستكبر المسيحُ عليه السلام من أن يكون عبدًا لله تعالى، كما لن يأنف - أيضًا - من الإقرار لله بالعبودة والإذعان له بذلك الملائكةُ الذين قرَّبهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه(١).

الاستنكاف هو الامتناع، ومع كون الملائكة - عليهم السلام أقوى وأقدر على الامتناع من المسيح، لكنهم هم - أيضًا - عبيد من عباد الله، وخَلْقٌ مِن خَلْقِه، وقد اتخذ المشركون الملائكةَ آلهةً مع الله كما اتخذوا المسيح، فنُفِيَ ذلك عن الجميع، لا لأنَّ الملائكة أفضل من البشر(٢).

الاستنكاف تكبُّر في تركه أَنَفَة، وليس في الاستكبار ذلك، والمعنى: لن يأنفَ ولن يمتنعَ من أن يكون عبدًا لله تعالى، مستمرًّا على عبادته وطاعته، وأن ذلك أقصى مراتب الشرف والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عن ذلك مع أنَّ شأنه المباهاة بكونه عبدًا كما تدلُّ عليه

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) [٤/ ٣٧٦].
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [١/ ٢٨٩].

أحوالُه، وتُفصح عنه أقواله كان لوقوع ذلك في موضع الجواب عما قاله الكفرة: هل يستنكف المسيح - لرفعة شأنه - عن وصفه بوصف العبودية[١].

**فائدة جليلة**: كمال نزاهة المسيح والملائكة المقرَّبين عن الاستنكاف بالكلية، لاستمرار هذا الوصف، واستتباعه وصف العبادة؛ فإن العبادة حالة متجدِّدة غير مستلزمة للدوام (قد تنقطع)، ويكفي وصف العبد بها إذا تحقَّقت مرَّة، لكنَّ عدم الاستنكاف صفة نفسية مستمرة، يلزم منها دوام العبادة[٢].

**وعليه؛ فإنَّ مِن فِقْهِ التقرُّب أن يُعلم:**

- أنَّ المتقرِّب مهما اجتهد، ومهما أُوتي من بشارات، أو امتلأ قلبه إيمانًا ويقينًا، وتملَّك كيانَه الخشوع، أو ارتفع شأنه بين الناس بعظيم الانتفاع به، فلا يزيده ذلك كلُّه إلا عبودية لله تعالى، وانطراحًا بين يديه، واستسلامًا لعظمته، وتوقيرًا لجلاله.
- أن مقام العبودية هو أسمى مقامات الرفعة، فكلما ازداد العبد عبوديَّة، كلما ارتفع شأنه عند ربِّه، ونال الزُّلفى لديه سبحانه.
- أنَّ الحدَّ الفاصل بين التوحيد والشرك أن يُدَّعى أن عبدًا متقرِّبًا مقرَّبًا قد جاوز حدَّ العبوديَّة؛ فدين الإسلام مبناه على الاستسلام والخضوع، بالازدياد في منزلة العبوديَّة؛ وأن المتقرِّب كلَّما تذلَّل لربِّه وتواضع كلِّما استحقَّ صفة العبودية، فكان بذلك مقبولَ التقرُّب عند ربِّه.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الألوسي) [٣/ ٢١١].
(٢) المرجع المتقدِّم، بالعزو نفسه.

- أنَّ العبد المتقرِّب قد يبلغ منزلةً يُنافس فيها الملائكة عليهم السلام؛ فيكون قربُه من ربِّه أعظمَ من قُرْبِ بعضِهم! فالملائكة قرَّبهم ربُّهم، والمتقرِّب من البشر جاهد نفسه في ترك محبوب، وتحمّل مكروه، فنال تلك المنزلة.
- أنَّ من سجيَّة المتقرِّب، وسَمْتِه المستدام: أن ترضى نفسه دومًا بتقرُّبه، وأن يُباهيَ به ويَشْرُفَ، فيثبُت عليه، ولا يُثنيه عنه شيء، ولا يصرفه عنه صارف من: ثناء أناس فيغترّ، أو عداوة آخرين فيجزع، أو صوارف دنيا فيُفتتن.

**قول الله تعالى**: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المَائدة: ٢٧].

## ❖ بعض ما استنبطه أهل التفسير:

قرَّب ولدا آدمَ لصُلبِه؛ كلٌّ منهما قربانًا، يتقرَّب به إلى ربِّه؛ فقرَّب أحدهما (هابيلُ) خيرَ ماله، وكان صاحب ماشية، فقرَّب من أَمْثَلِ غنمه حَمَلًا، وقرَّب الآخر (قابيلُ) شرَّ ماله، وكان صاحب زرعٍ، فقرَّب قمحًا من أرذل ما عنده! وكانت قرابين الأمم الماضية قبل أمَّتنا يُعْلَمُ المتقبَّل منها وغير المتقبَّل بأكل النار ما تُقُبِّلَ منها، وترك النار ما لم يُتَقَبَّلْ منها، فأتت نار أكلت الحمل ولم تأكل الزرع، فقال المردود عليه قربانه ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، وقال المتقبَّل منه قربانُه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

قال السُّدِّيُّ، عن ابن عباس، وعن ابن مسعود رضي الله عنهم: وايمُ اللهِ

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) [٦/٥٢٧] وما بعدها. ذكرته بتصرُّف مُستجمَعًا من مواضعَ منه.

(يُقسم) إنْ كان المقتولُ لأَشَدُّ الرجلين، ولكنْ منعه التحرُّجُ أن يَبْسُطَ يدَه إلى أخيه(١).

روى محمد بن إسحاق عن بعض أهل الكتاب الأول: كانت أخت قابيلَ من أحسنِ الناس، فضَنَّ بها على أخيه هابيل أن يتزوَّجها، وأرادها لنفسه، فقال له أبوه آدم: يا بُنيّ إنها لا تَحِلُّ لك(٢)، فأبَى قابيلُ أن يقبلَ ذلك، فقال له أبوه: يا بُنيّ قرِّب قربانًا، ويقرِّب أخوك هابيلُ قربانًا، فأيُّكما تُقُبِّلَ قربانُه فهو أحقُّ بها(٣).

أصحُّ الأقوال في تفسير ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هنا: أي: المتقين لله في ذلك العمل؛ بأنْ يكون عملُهم خالصًا لوجه الله، متَّبعين فيه سنَّة رسول الله ﷺ(٤).

**وعليه، فإنَّ مِن فِقْهِ التقرُّب أن يُعلم:**

- أنَّ على المتقرِّب أن يتحرَّى في تقرُّبه قلبًا هو أقرب وجه للإخلاص، وفي جوارحه عملًا هو أقرب وجهٍ في الاتباع؛ فصلاتُه خالصةً موافقةٌ للمشروع، ونفقته مع كونها أداءَ حقٍّ واجب، لكنها متوافقة مع نية مواساة وإشفاق وتفريج كربة، وأنَّه إن اختار هو خيارَ مالِه - لا عن إلزام - لينفقَ منه كان ذلك أقربَ إلى حُسن قَبول عمله، ومثل ذلك قل في الصيام والحجِّ، وسائر

---

(١) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [١/ ٣٤٢].
(٢) كان لا يولد لآدم مولود إلا ومعه جارية (بنتٌ توأمٌ له)؛ فكان يزوّج غلامَ هذا البطن جاريةَ هذا البطن الآخر، ويزوّج جاريةَ هذا البطن غلامَ هذا البطن الآخر. نقله ابن كثير عن السُّدِّيِّ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.
(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [١/ ٣٤٥].
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، ص٢٤٠.

العبادات؛ فإنْ أدّاها متحرِّيًا الإخلاص والاتباع، كان ذلك عين التقرُّب، وغاية المقصود.

- التقيُّ المتقرِّب، وإنْ كان ذا سلطة، أو مال، أو جاه، فإنَّ ذلك لا يدعوه - ألبتة - إلى ظلم، أو تعالٍ، أو غرور؛ فليس معيبًا الرفعة بمنصب، ولا التنعُّم بمال، ولا الوجاهة في مجتمع، إنما المعيب فيما يسيء به مَن يتَّصف بذلك.

- علامة التقيِّ المتقرِّب أنه وقَّاف عند حدود الله لا يتجاوزها بعمد، كما كان حالُ هابيلَ، فهو لم يرتكب جُرْمَ حرمة الزواج بأختٍ له في بطن واحد، ولم يبسط يده إلى أخيه ليقتله، مع قوته وقدرته على ذلك. بالمقابل؛ فإنَّ علامة الشقيّ المُبْعَد أن يتجرَّأ على تجاوز حدود الله، ويستسهل ذلك، كما كان حال قابيل، حين أبى وَعْظَ والده (يا بنيّ إنها لا تَحِلُّ لك)، فأورثه ذلك التكبُّر رفضًا آخر لحكم قَبول قُربان أخيه، ثم أورثه حسدًا، أورثه غِلًّا، أورثه قتلًا !

**قول الله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التّوبَة: ٩٩].

**❖ بعض ما استنبطه أهل التفسير:**

يقول - تعالى ذِكْرُه -: ومن الأعراب مَن يصدِّق اللهَ ويُقِرُّ بوحدانيته، وبالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب، وينوي ما ينفق من نفقةٍ في جهاد المشركين، وفي سفره مع رسول الله ﷺ: ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: ٩٩]. و(القُربات) جمع (قُربة)، وهو ما قرَّبه مِن رضى الله ومحبَّته، ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني بذلك: ويبتغي بنفقة ما ينفق، مع

طلب قربته من الله، دعاء الرسول ﷺ واستغفاره له؛ حيث إنَّ من معاني الصَّلاة: الدُّعاء. وعن مجاهدٍ رحمه الله: إن هؤلاء الأعراب هم بنو مقرِّن، من مُزَيْنَةَ، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢][١].

معنى ﴿يَتَّخِذُ﴾ في هذه الآية: أن يجعل مقصده، ولا ينوي فيه غير القربة عند الله عزَّ وجلَّ، واستغنام دعاء الرسول ﷺ؛ ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار، وخير الدنيا في أرزاقهم ومِنَحِ اللهِ لهم، والصلاةُ في هذه الآية الدعاء إجماعًا[٢].

الأعراب هم سكان البادية والبراري، وهم - غالبًا - أحرص على الأموال وأَشَحُّ فيها من أهل الحاضرة، وليس الأعراب كلُّهم مذمومين، بل منهم مَن يحتسب نفقته ويقصد بها وجهَ الله والقربَ منه ويجعلها وسيلةً لدعاء الرسول ﷺ لهم وتبريكه عليهم. وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة؛ منهم الممدوح ومنهم المذموم فلم يذمَّهم الله على مجرد تعرُّبهم وباديتهم، إنما ذمَّهم على ترك أوامر الله، وأنَّهم في مظنَّة ذلك[٣].

**وعليه، فإنَّ مِنْ فِقْهِ التقرُّب أن يُعلم:**

- أنَّ المعوَّل عليه في شأن قَبول التقرُّب أن يكون مقصد التقرُّب:

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) [٦/ ٤٥٢].

(٢) المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (تفسير ابن عطية)، لابن عطية الأندلسي [٣/ ٧٤].

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، ص٣٨٧.

الزلفى إلى الله، وطلب محبته، ورجاء مرضاته، حتى وإنْ كان العمل قليلًا؛ فدَمْعُ أَعْيُنِ أولئك الأعراب هو أثقل في ميزان الله تعالى من إنفاق قناطيرَ مقنطرةٍ من الذهب والفضة لا يُبتغَى بها وجهُ الله، وتلك الحسرة التي وجدها الفقراء منهم، والحزن الذي فاضت لأجله أعينهم تنزَّلت بذلك آياتٌ تُتلى إلى يوم القيامة؛ كي يجعلَ كلٌّ متقرِّبٍ همَّه الإخلاص في طلب المحبَّة، وابتغاء الرضى، ونيل الزُّلفى عند ربِّه.

- أنَّ مجاهدة النفس في ترك محبوبها، وتحمُّل مكروهها، هو مطلوب أساس في سبيل التقرُّب؛ فالأعراب مع شدة حرص أكثرهم على المال، وكُره إنفاقه، أنفق بعضهم ما أمكنه راجيًا أن يكون ذلك سببًا إلى رضى الله، ومسلكًا إلى دعاء نبيِّه ﷺ لهم، فمنَّ اللهُ عليهم بذلك. كذلك فإنَّ كلَّ متقرِّب كلَّما اعترضه محبوبُ نفسِه عن أداء طاعة دفعه عنه، وبادر بها، وكلما كرهت نفسه تحمُّل مشقة عوَّدها حتى تعوَّدت، وربَّما أحبَّت! شأنُه -دومًا- أن يسيرَ بين هذا وذاك حتى يصيرَ عبدًا محبوبًا مقرَّبًا عند ربِّه.
- أنَّ حُسن سريرة المتقرِّب وسيلةٌ عُظمى إلى تحقُّق مقصوده؛ فلا يتهم العبادَ في نياتهم، ولا يعمِّم حكمًا على قوم بأسرهم، وأن يَظُنَّ بكلِّ مسلم خيرًا، حتى يتبيَّن له خلافُ ذلك؛ فحُسْنُ الطويَّة مقرِّب إلى الله، وسوؤها مُبْعِد عن سبيله.

**قول الله تعالى:** ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هُود: ٦١].

**❖ بعض ما استنبطه أهل التفسير:**

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾، اعملوا عملًا يكون سببًا لستر الله عليكم ذنوبكم؛

وذلك بالإيمان به، وإخلاص العبادة له دون ما سواه، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ثم اتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة، ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه(١).

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، قريب ممن دعاه دعاء مسألةٍ أو دعاء عبادة، فإنه يجيبه بإعطائه سؤاله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجلَّ الثواب(٢).

**وعليه، فإنَّ مِن فِقْهِ التقرُّب أن يُعلم:**

- أن بداية سبيل التقرُّب إنما يكون بالإخلاص في التوحيد، ومن ثَمَّ بمبادرة العبد إلى التخلُّص من سالف ذنبه بطلب ستر الله عليه باستغفاره، وبالرجوع المستمرِّ إلى الله بتجديد إيمانه، وتأدية الأعمال الصالحات، وتكرار التوبة بالإنابة إلى الله مرارًا؛ فكلما قارف ذنبًا فغلبته نفسه بالتقصير في طاعة، أو ارتكاب معصية، ألَّا يُعاود مُصِرًّا على التكاسل، أو مستسهلًا للذنب، مع عزم على تحرِّي الاستقامة، ويكون ذلك دأبه ما حَيِي.
- أنَّ التوبة النَّصوح (الخالصة) كما أنها هي مبدأ طريق التقرُّب، وهي المرافقة للمتقرِّب دومًا حتى المنتهى، فإنها كذلك سبب عظيم لإجابة الدعاء وقَبول العبادة؛ فإذا تقبَّل الله دعاء العبد، وتقبَّل منه عبادته ضاعف له مثوبته، وزاده قربًا إليه.

**قول الله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧].

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) [٧/ ٦٢].
(٢) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، ص٤٢٣.

❖ بعض ما استنبطه أهل التفسير:

هؤلاء الذين يدَّعيهم المشركون أربابًا فيَدْعونهم، هؤلاء المدعوُّون - هم أنفسهم - يبتغون إلى ربِّهم القُربة والزُّلفة؛ لأنَّهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ! والحال أن أولئك العباد يتنافسون أيُّهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عند الله زُلفة. والوسيلة هي القُربة والزُّلفة(١).

لا تتمُّ العبادة إلا بالخوف والرجاء؛ فبالخوف يَنْكَفُّ العبد عن المناهي، وبالرجاء يُكثِرُ من الطاعات(٢).

المشركون يدعون أولئك الصالحين، طِلْبَةً إلى الله بهم، والحالُ أنَّ أولئك المدعوِّين يتبارَوْن في طلب القُرب من الله، ونَظَرُهم ووُكدُهم (همُّهم، وقصدهم، ومرادُهم، وسعيُهم) أيُّهم يكون أقرب إليه سبحانه(٣).

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) [٨/ ٩٧].
واختار الطبريُّ رحمه الله أنَّ المدعوِّين هم نفر من الجنِّ، أو صنف من الملائكة يُقال لهم: الجنُّ، وتزعم بعض العرب أنهم بنات الله، فلا يدخل فيهم عيسى والعُزير عليهما السلام؛ حيث إنَّ عيسى قد كان رُفِع، وعزيرًا لم يكن موجودًا على عهد النبيِّ عليه الصلاة والسلام فيبتغي إلى ربه الوسيلة وإنما يبتغي إلى ربِّه الوسيلة مَن كان موجودًا حيًّا يعمل بطاعة الله، ويتقرَّب إليه بالصالح من الأعمال. فأما من كان لا سبيلَ له إلى العمل، فبِمَ يبتغي إلى ربِّه الوسيلة؟!
وقد نقل هذا الاختيارَ عنه ابنُ كثير في تفسيره [٣/ ٦٦]، وزاد رحمه الله في التعليل أنَّ قول الله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] لا يعبَّر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعُزير والملائكة. اهـ.
(٢) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [٣/ ٦٦].
(٣) المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية) [٣/ ٤٦٦].

وعليه؛ فإنَّ مِن فِقْهِ التقرُّب أن يُعلم:

- أنَّ المتقرِّب شأنُه أن لا يتعلَّق بواسطة بينه وبين ربِّه؛ فإنَّ في جعل تلك الواسطة الاعتقاد بأن القُرب لن يحصل إلا بطريق ذلك، وهذا صادٌّ، بل هو قاطع عن القُرب، وهو في حقيقته نوع عبادة لتلك الوسائط، وهذا منافٍ لخلوص الدين لله، وهو عين ما كان يفعله مشركو العرب زمن الرسالة.

يقول سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٣].

- أن المتقرِّب شأنه أن يتحرَّى الوسيلة الأقرب؛ وهي: توحيد الله وإخلاص العبادة له، وأن تكون عبادته موافقةً للمشروع، ومن ثَمَّ فإنَّه ينوِّع في صُنوف التقرُّب متحرِّيًا ما كان منها موصلًا إلى مضاعفة الأجور؛ من أدائها على هيئة مشروعة، وفي زمان ثَبَتَ فضلُه، أو مكان مباركٍ شُرعت العبادةُ فيه .

- المتقرِّب شأنه أن ينافس العباد بوسيلته الأقرب، لا أن يعملوا هم، ثم لا يكون همُّه هو إلا التمسُّك بهم من غير عمل، والتوجُّه إليهم مع غاية الكسل، زاعمًا أنَّ محبَّتهم بذاتها مُوصِلة، والانتسابَ إليهم مُنَجٍّ من غير سلوك مَسلكهم !!

- أنَّ التقرُّب لا يكون إلا بالعبادة، والدافع إليها كونُه عبدًا، طالبًا القرب، مبتغيًا المحبَّة، يحثُّه في سيره جناحا الخوف والرجاء؛ فإذا قصَّر خاف العقوبة فانزجر، وإذا ارتقى رجا المثوبة فشحذ الهمَّة وضاعف العمل؛ هذا دأبه لا يفارقه.

تلك كانت طائفة من نصوص قرآنيَّة، فصَّلت في تدبُّرها ليسير المتقرِّب على بصيرة في تقرُّبه، وقد ذكرتها - كما لا يخفى - مرتبةً بترتيب سور المصحف، وقد يَحسن بي - إتمامًا للفائدة - أن أُتِمَّ ذِكْرَ النصوص القرآنية المتعلِّقة بالتقرُّب؛ أسردها سردًا - دون تفصيل في نُقول تفسيرها واستنباط فقهها - ضانًّا بوقت القارئ في ذلك، مُفسحًا له شأنًا في تدبُّرها فينسج فيها - إن شاء الله - على منوال ما تقدَّم.

- قال تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٤].
- وقال سبحانه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]
- وقال عزَّ شأنه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].
- وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٣]
- وقال جلَّ في عُلاه: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]
- وقال تبارك اسمه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١١]
- وقال جلَّ جلاله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩].

- وقال ذو الجلال والإكرام: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ [المطفّفين: ٢٠-٢١].
- وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطفّفين: ٢٧-٢٨].
- وقال عزَّ شأنه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العَلق: ١٩].

**ب - التقرُّب في السُّنَّةِ النبويّة.**

سأعمد في هذا المبحث إلى اختيار نصَّيْن حديثِيَّيْن؛ باعتبارهما عمدةً في بيان شأن التقرُّب، ناقلًا عباراتٍ لبعض شُرَّاحِ الحديث، مستخلصًا من ذلك فوائدَ تُعين على فقه هذا الشأن.

**الحديث الأوَّل**: عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله تعالى**(١)**: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني؛ فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلَةً**». [البخاريُّ، ومسلمٌ - باختلافٍ يسير].

- معنى «**ظنِّ عبدي بي**»: ظنُّ الإجابة عند الدعاء، وظنُّ القَبول عند التوبة، وظنُّ المغفرة عند الاستغفار، وظنُّ المجازاة عند فعل العبادة بشروطها؛ تمسُّكًا بصادق وعده سبحانه(٢).

---

(١) قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى» هو دالٌّ على أن هذا حديث من الأحاديث القدسيَّة، والحديث القدسي كما عرَّفه الجرجانيُّ رحمه الله: هو من حيث المعنى من عند الله، ومن حيث اللفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو ما أخبر اللهُ تعالى به نبيَّه بإلهام، أو بالمنام فأخبر عليه الصلاة والسلام عن ذلك بعبارات نفسه.

(٢) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر (١٣/ ٣٩٧).

**وعليه**، فإنَّ المتقرِّب إلى الله يتقرَّب إليه وهو موقن بأنّ الله يقبل عملَه، ويمنُّ عليه بما وعده؛ فإذا حَسُنَ ظنُّه بربِّه انتفع باجتهاده في عمله، وقرَّبه الله إليه، وحقَّق رجاءه، وإلَّا رُدَّ عليه عملُه، ولم ينفعه اجتهاده .

- المعيَّة المقصودة في قوله تعالى: «**وأنا معه حين يذكرني**»، هي معيَّة خاصَّة لهذا العبد الذاكر، فيكون الله - عزَّ وجلَّ - معه حالَ ذِكْرِه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية(١).

**وعليه**، فالمتقرِّب إلى الله تعالى بذكره ينبغي له الاعتقاد - يقينًا - بأنَّ ربَّه قريب منه برحمته، موفِّق له لمزيد من طاعته، مثبِّت له في هدايته، حافظ له في رعايته؛ يُطمئن قلبَه فيزداد ذكرًا لربِّه وتقرُّبًا إليه .

- المراد بالنفس في قوله تعالى: «**ذكرتُه في نفسي**» ذاتُ اللهِ جلَّ وعلا، ويجوز أن يكون أيضًا مرادُ الحديث أن الذاكر إذا ذكر ربَّه خاليًا أثابه الله وجازاه عما عمل بما لا يطَّلع عليه أحد(٢).

**وعليه**، فإنَّ مَن تقرَّب إلى الله مجتهدًا في إخفاء ذكره لربِّه؛ طالبًا أن يكون له قرب خاصٌّ، أثابه الله تعالى بأن يتقبَّل منه ذكره تقبُّلًا لا يطَّلع عليه أحد من خلقه، وأن يُثيبه مثوبة خاصَّة لا يُطلع عليها أحدًا من خلقه؛ تكرمةً له جزاء نيَّته إخفاء ذكره لربِّه؛ تعظيمًا، وتقديسًا، وتنزيهًا، وإخلاصًا له سبحانه.

وأعظم من ذلك وأجلُّ أن ينال الذاكر في نفسه خاليًا يأنس بربِّه -

---

(١) انظر: شرح مسلم للنووي (١٧/ ٢).
(٢) أيضًا: شرح مسلم للنووي، بالعزو نفسه.

سبحانه - أن يحظى بمنزلة ليس كمثلها منزلة: أن يذكره ربُّه في ذاته جلَّ وعلا؛ فأيُّ قرب بعد هذا؟!

- «**وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم**»، التقدير: إنْ ذكرني جهرًا ذكرته بثوابٍ أُطلع عليه الملأَ الأعلى[١].

**وعليه**، فإنَّ المتقرِّب الذاكرَ في ملأٍ من الذاكرين جهرًا، يرفع الله منزلته بذكر ثوابه في ملِأ الملائكة عليهم السلام، فيكون ثوابُه معنويًّا برفعة منزلته، فضلًا عن مجازاته في جنة ربِّه.

- «**وإنْ تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا، وإنْ أتالي يمشي أتيتُه هَروَلَةً**»، هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادةُ ظاهرِه، ومعناه: مَن تقرَّب إليَّ بطاعتي تقرَّبت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإنْ زاد زدت، فإنْ أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيتُه هرولةً؛ أي: صَبَبْتُ عليه الرحمة وسبقتُه بها، ولم أُحْوِجْه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، والمراد: أنَّ جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقرُّبه[٢].

**وعليه**، فإذا عَلِمَ المتقرِّبُ وتيقَّن أن أجره لا يكون إلَّا مضاعفًا، دام استبشارُه في كلِّ عمل يتقرَّب فيه، فحرص على الاستزادة في تقرُّبه دومًا، وقرَّت عينُه بسعة ثواب ربِّه.

**الحديث الثاني**: عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ الله قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ،**

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٩٨).
(٢) انظر: شرح مسلم للنووي (١٧/ ٣).

**عبدي بشيء أَحَبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه؛ فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، وإنْ سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه. وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعلُه تردُّدي عن نفس المؤمن؛ يكره الموتَ، وأنا أكره مَساءَته»** [البخاري].

هذا الحديث وُصف بأنه أشرف حديث في ذكر الأولياء(١).

- «**من عادى لي وليًّا**»؛ المراد بوليِّ الله: العالِمُ بالله المواظب على طاعته، المخلص في عبادته(٢). ومعنى «**عادى لي وليًّا**» أي: اتخذه عدوًّا، ولا أرى المعنى إلَّا أنه عاداه من أجل ولايته، ويُستفاد من هذا تقديم الإعذار على الإنذار(٣).

**وعليه،** فإنَّ الأولياء - حقًّا - هم أولئك المؤمنون العالمون، هم أهل التقوى، وأهل الصلاح، المجتهدون - دومًا - في الاستمرار على استقامتهم، مهما تفاوت علمُهم وعبادتهم؛ فالجميع هم من أولياء الله تعالى، وهم درجات في تلك الولاية، كما في قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يُونس: ٦٢-٦٣].

أما ما ابتدعه قوم من إسباغ صفة الولاية على كلِّ مَن ظهرت له خارقة، ولو كان على غير علم، ولم يتصف باستقامة؛ فخوارقهم تلك قد تكون استمدادًا شيطانيًّا، وأحوالَ سوء؛ فتنةً للناس، وقد جعل

(١) كما وصفه ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٩).
(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٥٠).
(٣) العزو المتقدِّم؛ ينقله ابن حجر عن الوزير العالِم ابن هبيرةَ في «الإفصاح عن معاني الصِّحاح».

هؤلاء ظهورَ خارقٍ ولو كان مُختَرَقًا مكذوبًا، جعلوا ذلك كرامة، وتلك عندهم علامة على الولاية. والحقُّ الذي لا محيدَ عنه أن كلَّ مؤمن تقيٍّ هو وليٌّ لله تعالى؛ سواء نال كرامة مشهودة أم لم يَنَلْ، فإنَّ استقامته وثباته عليها، كرامةٌ له في ذاتها، وإن لم يَجْرِ على يديه أيُّ خارق؛ فها هم صحابة رسول الله ﷺ وهم أهل خير القرون إطلاقًا لم يُعْطَ أكثرُهم خوارقَ عادات، وهم - بلا مِراءٍ - خُلَّص المؤمنين، وأصفياء المتقين، أولياء لله تعالى أهلٌ لكرامته .

ومما ينبغي للمتقرِّب أن يعلمَه أن أولياء الله تعالى لهم فضلهم ومنزلتهم عند الله سبحانه، وأن مَن أحبَّهم فقد أحبَّ الله، ومن عاداهم فقد عادى الله، وأنَّ مَن عادى اللهَ فاللهُ مُحارِبُه، ولا ريبَ في أن الله خاذلُه وغالبُه. فإنْ شاء المتقرِّب مزيدَ قربٍ فليُكرم أولياءَ الله ما استطاع، وليحرص على ملازمتهم والتقرُّب منهم، والتأسِّي بهم، واتباع سبيلهم، والنسجِ على مِنوالهم.

ومما يستفاد أيضًا أنَّ مَن عادى وليًّا لله، ولم يعادِه إلّا لأجل ولايته، وقربه من الله تعالى، فإنما هو إمَّا حاسد له - في أدنى الاحتمالين سوءًا -، يرغب في أن تزول نعمة الولاية عن أخيه، وتتوجَّه إليه ! وإما معادٍ لله تعالى من خلال معاداة أوليائه - عياذًا بالله تعالى - وقد يقع في الاحتمال الأوَّل أناسٌ تشوَّفوا في أنفسهم إلى الولاية، وزايدوا - بغير حقٍّ - على أهل الإيمان والتقوى، مدَّعين تزمُّتَهم، وقلة فقههم، وأنَّ التديُّن الحقَّ إنما هو في جانب الحاسدين، فيُبغضون مؤمنين متقين، بل يبغِّضونهم إلى الخلق، مشوِّهين صورتهم، منفِّرين عنهم، وهذا في حقيقته إنما هو معاداة لأولياء الله، كان الدافع له؛

إما الحسد، وإما طلب الشهرة، وإما المزاحمة الباطلة على الولاية !

أما المبغض للوليِّ لأجل ولايته، فإنما هو محارب لله تعالى، مبارز لدينه، وعداوة هذا ظاهرة، بخلاف مَن سبقه.

**وعلاقة ذلك كلِّه بشأن التقرُّب**: ضرورة أن يحرصَ المتقرِّب إلى الله على موالاة مَن كان وليًّا لله تعالى؛ فإنَّ موالاة هؤلاء ومعاداة أعدائهم سبيل مقرِّب إلى الله عزَّ وجلَّ، وإن معاداتهم - ولو حسدًا - سبيل صادٌّ عن التقرُّب بالكلية.

- «**فقد آذنتُه بالحرب**»؛ الإيذان بالشيء الإعلامُ به، ومنه أُخِذَ الأذانُ = الإعلام بدخول وقت الصلاة، فالمعنى: فقد أعلمتُه بأنه متعرِّض لإهلاكي إياه، فأطلق الحربَ وأراد لازمَه؛ أي: أعمل به ما يعمله العدوُّ المحارب، وفي هذا تهديد شديد؛ لأنَّ مَن حاربه اللهُ أهلكه؛ فمَن كره مَن أحبَّ اللهَ خالف اللهَ، ومن خالف الله فقد عانده، ومن عاند اللهَ أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت - خلافُه - في جانب الموالاة؛ فمن والَى أولياءَ اللهِ أكرمه الله(١).

**وعليه**، فإن من لوازم التقرُّب إلى الله وجوب موالاة أوليائه سبحانه ومحبَّتهم، وتحريم معاداتهم ومجانبة بُغْضِهم، كما أنَّ أعداء الله تجب معاداتُهم، وتَحْرُمُ موالاتُهم؛ فمن فعل ذلك كلَّه، والتزمه فقد سلك طريقًا عظيمًا موصلًا، ومَن فعل خلاف ذلك فليس من التقرُّب في شيء.

- «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه**» .

---

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر (١١/ ٣٥٠).

لمَّا ذكر - سبحانه - أنَّ معاداة أوليائه محاربةٌ له، بيَّن بعد ذلك وصفَ أوليائه الذين تحرم معاداتُهم، وتجب موالاتُهم، فذكر ما يُتقرَّب به إليه(١).

يدخل تحت هذا اللفظ: «**افترضتُه**» جميعُ فرائضِ العين والكفاية، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به: امتثال الأمر، واحترام الآمِر وتعظيمه بالانقياد إليه، وإظهار عظمة الربوبية وذلِّ العبودية، فكان التقرُّب بذلك أعظم العمل(٢).

- التقرُّب طلبُ القُرب، وقرب العبد من ربِّه يقع أولًا بإيمانه، ثم بإحسانه. وقرب الربِّ من عبده: ما يخصُّه به في الدنيا من عرفانه، وفي الآخرة من رضوانه، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه. ومعنى الحديث: أنه إذا أدَّى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرِهما أفضَى به ذلك إلى محبَّة الله تعالى(٣).

- ذكر في هذا الحديث أنَّ أولياء الله على درجتين(٤):

**أحدهما**: المتقرِّبون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين.

**الدرجة الثانية**: درجة السابقين المقرَّبين؛ وهم الذين تقرَّبوا إلى الله بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات

---

(١) جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم، لابن رجب الحنبلي، ص٦٦٧.
(٢) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/ ٣٥١).
(٣) انظر: المرجع المتقدم (٥/ ٣٥١).
(٤) انظر: جامع العلوم والحِكَم لابن رجب الحنبلي، ص٦٦٨ وما بعدها.

بالورع؛ فأهل هذه الدرجة من المقرَّبين ليس لهم همٌّ إلَّا فيما يقرِّبهم ممَّن يحبُّهم ويحبُّونه.

المراد من النوافل ما كانت حاويةً للفرائض مشتملة عليها، ومكمِّلة لها، ومعنى الحديث: أنه إذا أدى الفرائض، ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرِهما أفضَى به ذلك إلى محبَّة الله تعالى. والنافلة لا تُقدَّم على الفريضة؛ لأنّ النافلة إنما سمِّيت نافلةً لأنها تأتي زائدة على الفريضة، فما لم تؤدَّ الفريضة لا تحصل النافلة، ومَن أدَّى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحقَّقت منه إرادة التقرُّب، وأيضًا فإنَّ من جملة ما شُرعت له النوافلُ جبر الفرائض؛ فتبيَّن أن المراد من التقرُّب بالنوافل أن تقع ممَّن أدَّى الفرائض لا مَن أخلَّ بها، كما قال بعض الأكابر: مَن شغله الفرضُ عن النفل فهو معذور، ومَن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور(١).

**وعليه**، فإنَّ مُريد التقرُّب لا بدَّ له من طلب علم؛ ليستجمع ما أمكنه من علمِ ما افترضه الله تعالى على عباده؛ مبتدئًا بالحرص على فروض العين، ومؤدِّيًا ما أمكنه من فروض الكفايات؛ فيحقِّق بذلك كونه عبدًا متقرِّبًا إلى ربِّه على بصيرة .

كذلك، فإنَّ مُريد التقرُّب يعلم أن النوافل هي الزيادات على الفرائض، وأن النافلة لا تتحقق إلا إذا حرص على إتمام فرائضه، (كمًّا، وكيفًا)، فلا يخلط - في عمله - مغترًّا بعمل زيادات يتقرَّب بها، مع ترك فرائض لا بدَّ منها ! فيقوم الليل - مثلًا - ثم تفوته فريضة الفجر، أو يُكثر من الصدقة، وهو لا يؤدِّي زكاته ! أو يصل أصدقاءه،

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٥١).

وهو يَدَعُ صلة أرحامه ! أو يلاطف كلَّ مَن يلقاه، ثم هو إذا لقي أهلَ بيته عبس وبَسَر ! فإنْ فعل هذا وأمثالَه لم يتحقَّق له مُراد التقرُّب، ودخل في سلك المتنفِّلين ظاهرًا، ولا يزال يُراوح في مقام إتمام فرائضه، لا يتعداه، وتكون نوافله التي عمل ليست إلَّا جوابر ومكمِّلات لما انتقصه من فريضته. فكن حصيفًا - أيها المتقرِّب - مرتِّبًا خطوات تقرُّبك: التعلُّم أولًا لما شرعه الله تعالى فأوجبه أو حرَّمه، لتؤديَ الواجب مجتهدًا ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وتجتنب المحرَّم فلا تعمله، ولا تقربه. فإنْ فعلتَ بحثتَ - بعدها - عما شرعه الله تعالى من نوافل أعمال تَلِجُ أبوابها برفق متدرِّجًا تُعوِّد نفسَك على الترقِّي في أدائها، فإنْ فعلت - ونعمَّا فعلت - درَّبت نفسك على ترك المكروهات متورِّعًا عن فعلها، حتى يصل بك المقام إلى التخفُّف من بعض المباحات طلبًا للزهد بها، وبُعدًا عن الإسراف في عملها؛ فتدع كثرة المأكل والمشرب، وتُجافي جنبك عن مضجعك، وتُؤْثِرُ القيامَ على المنام، وتعلم أن المراد بالنكاح إحصانُ النفس والزوجة لا الإسراف فيه، وأن الدار مسكن يُؤوي وليس قصرًا يُغوي، وأن الأثاث سبيل راحة لا طلب تفاخر.

فإن تدرَّجتَ في فعل ذلك كلِّه، لا يَحْدُوك إلى فعله إلَّا الإخلاص لله تعالى، واتباع رسوله ﷺ، فأنت المتقرِّب المقرَّب حقًّا.

- «**فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطِش بها، ورِجْلَه التي يمشي بها**».

ورد هذا على سبيل التمثيل؛ والمعنى: كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري؛ فهو يحبُّ طاعتي ويُؤْثِرُ خدمتي كما يحبُّ حفظَ هذه الجوارح.

فتكون كليَّته مشغولةً بي؛ فلا يُصغي بسمعه إلا إلى ما يُرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به، وأجعل له مقاصدَه كأنه ينالها بسمعه وبصره، وكنت له في النُّصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوِّه. والتقدير: كنت حافظَ سمعه الذي يسمع به؛ فلا يسمع إلا ما يَحِلُّ استماعُه، وحافظَ بصره كذلك، ويحتمل معنى آخر أدقَّ من الذي قبله، وهو: أنه لا يسمع إلا ذِكري، ولا يتلذَّذ إلا بتلاوة كتابي، ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يَمُدُّ يده إلا فيما فيه رضاي، ورِجله كذلك. واتفق العلماء - ممَّن يُعتَدُّ بقوله - أنَّ هذا مجاز وكِناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه - سبحانه - ينزِّل نفسَه مِن عبدِه منزلةَ الآلات التي يستعين بها؛ ولهذا وقع في روايةٍ: «**فبي يسمع، وبي يُبصر، وبي يَبْطِشُ، وبي يمشي**». وخلاصة المعنى: توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبَّة له فيها؛ بأنْ يحفظ جوارحه عليه، ويَعْصِمَه عن مُواقعة ما يكره اللهُ من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى اللهُ عنه ببصره، ومن البطش - أي: العمل - فيما لا يَحِلُّ له بيده، ومن السعي إلى الباطل برِجله، فلا يتصرَّف إلا في محابِّ الله؛ لأنه إذا أحبَّه كره له أن يتصرَّف فيما يكرهه منه. وعلى الأوجُه المذكورة كلِّها فلا متمسَّكَ فيه - ألبتة - للاتحاديَّة، ولا للقائلين بالوحدة المطلقة؛ لقوله في بقية الحديث: «**وإنْ سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه**»؛ فإنه كالصريح في الردِّ عليهم[1].

---

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/ ٣٥١ - ٣٥٢)، وانظر - أيضًا - عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٢٣/ ٩٠).

متى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى، محا ذلك من القلب كلَّ ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريد منه مولاه؛ فحينئذٍ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرّك إلا بأمره، فإنْ نطقَ نطق بالله، وإن سَمِع سمع به، وإن نظرَ نظر به، وإن بطشَ بطش به، فهذا هو المراد بقوله: «**كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يَبطِش بها، ورجلَه التي يمشي بها**»، ومَن أشار إلى غير هذا، فإنما يُشير إلى الإلحاد؛ من الحُلول، أو الاتحاد، واللهُ ورسولُه بريئان منه(١).

من أسرار التوحيد الخاصَّة أنَّ من معنى لا إلٰه إلا الله: أنّه لا يؤلَّه غيرُه حبًّا، ورجاءً، وخوفًا، وطاعةً؛ فإذا تحقَّق القلبُ بالتوحيد التامِّ لم يبق فيه محبةٌ لغير ما يحبُّه الله، ولا كراهة لغير ما يكرهه الله، ومَن كان كذلك لم تنبعث جوارحُه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من محبَّة ما يكرهه الله، أو كراهةِ ما يحبُّه الله، وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبَّة الله وخشيته، وذلك يقدح في كمال التوحيد الواجب، فيقع العبد بسبب ذلك في التفريط في بعض الواجبات، أو ارتكاب بعض المحظورات، فأما مَن تحقَّق قلبُه بتوحيد الله فلا يبقى له همٌّ إلا في الله وفيما يُرضيه به(٢).

**وعليه**؛ فليعلم المتقرِّب أنَّ صلاح عمله إنما يكون - أوَّلًا وآخِرًا - بصلاح قلبه وملئه بتعظيم ربِّه، فهو السبيل الأوحد لصلاح جوارحه، وقبول تقرُّبه. وأنَّ عليه - دومًا - في سلوكه أن يكون وازنًا لأعماله

(١) انظر: جامع العلوم والحِكم، لابن رجب الحنبلي ص٦٧٧.
(٢) المرجع المتقدِّم، ص٦٧٨.

بميزان الشرع، وكأني به يمتلك جهازَ تحسُّسٍ يستشعر به الأقرب إلى محابِّ ربِّه فالأقرب، ويقيس به المُبعِدات الصادَّات عن رضى ربِّه؛ فيُقبل على المحابِّ - ما أمكنه -، وينفر عن المكروهات فلا يقربها؛ فإنْ فعل هرع إلى استرضاء ربِّه بالتوبة إليه؛ فتكون توبته تلك سبيلًا عظيمًا في تحقيق تقرُّبه .

هذا الجهاز الحاسُّ الذي اكتسبه - بتوفيق الله - مِن طلبه العلمَ، ومن ثَمَّ قيامه بالفرائض، ومواظبته على النوافل، مزدادًا منها باطِّراد، هو الذي يمنح المتقرِّبَ شعورًا بالالتذاذ عند سماع القرآن، وبالراحة عند الذِّكر، وبالتعلُّق بمجالس العلم، وبالنظر في بديع خلق الله، وبديع صُنعه، وأنْ لا يُعْمِلَ يديه إلا في عملٍ يرضي ربَّه، فيسعى لتسخير ما يتقن خدمةً لعباده، ونفعًا لهم، ولا يسعى في مسعًى إلا وهو فيما يحبُّه ربُّه؛ فيسير إلى صلاة، ويَصِلُ رَحِمًا، ويسعى في عيلة فقير، ويُعين ملهوفًا، ويجبر كَسْرَ كَسِير، ويدفع الأذى عن الناس، ويحجز ظالمًا عن ظلمه، ويؤدي حقوق العباد، ويصدق في تجارته؛ فلا يبخس حقًّا، ولا يغشُّ عبدًا، ولا يطفِّف كيلًا، ولا يُنقص وزنًا، ويُحسن للجار جوارَه، ويكفُّ عنه أذًى، ويستر عنه عيبَه، ولا يتتبَّع عورته، كلُّ ذلك يكون للمتقرِّب دَيدنًا، ومنهجَ حياة، فحيثما استطاعه فَعَله؛ معتقدًا بتوفيق الله له في ذلك جميعِه.

- «**وإنْ سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه**» .

في الحديث عِظَمُ قَدْرِ الصلاة؛ فإنه ينشأ عنها محبَّةُ اللهِ العبدَ الذي يتقرَّب بها؛ وذلك لأنها محلُّ المناجاة والقُربة، ولا واسطةَ فيها بين العبد وربِّه، ولا شيءَ أقرّ لعين العبد منها؛ ولهذا جاء في حديث أنسٍ

مرفوعًا: «**وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة**». [أخرجه النَّسائيُّ وغيره بسند صحيح]، ومَن كانت قرَّة عينه في شيء فإنه يَوَدُّ أن لا يُفارقَه ولا يخرج منه؛ لأن فيه نعمه، وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك بالمصابرة على النَّصَبِ - أي: التعب، والمثابرة، والمبالغة - فإنَّ السالك عَرَضُ الآفات والفتور. وقد تمسَّك بهذا الحديث بعض الجهلة من أهل التخلِّي والرياضة، فقالوا: القلب إذا كان محفوظًا مع الله كانت خواطره معصومة عن الخطأ ! وتعقَّب ذلك أهل التحقيق من أهل الطريق، فقالوا: لا يُلتفت إلى شيءٍ من ذلك إلا إذا وافق الكتابَ والسنَّة، والعصمةُ إنما هي للأنبياء ومَن عداهم فقد يخطئ(١).

هذا الحديث يعني أن هذا المحبوب المقرَّب له عند الله منزلةً خاصة تقتضي أنه إذا سأل الله شيئًا أعطاه إيَّاه، وإن استعاذ به من شيء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه؛ فيصير مجابَ الدعوة؛ لكرامته على ربِّه عزَّ وجلَّ، وقد كان كثير من السلف الصالح معروفًا بإجابة الدعوة(٢).

**وعليه**؛ فإن أَولى طريق يسلكه المتقرِّب إلى ربِّه كائنٌ في إكثاره من التنفُّل بالصلاة؛ فهي حصن له من شواغل الطريق؛ فيكون في ذلك كالباحث عن صُنوف صلوات النافلة، فيجتهد ألَّا يضيِّع شيئًا منها، فيواظب على سنن الفرائض، ويُكثر من أداء صلاة الضحى، ويحفظ وتره، ويقوم ليله، فإذا أراد مطلوبًا طلبه في صلاته، وهو في مقام

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر (١١/ ٣٥٣).
(٢) المرجع المتقدم بالعزو نفسه.
وللعلم أذكر بعضًا من مجابي الدعوة من سلفنا الصالح: سعد بن أبي وقاص، سعيد ابن زيد، أنس بن مالك، البراء بن مالك رضي الله عنهم، وأويس بن عامر القرني، وصِلة بن أشيم، وبلال بن سعد، وعبدالله بن المبارك، وغيرهم رحم الله الجميع.

التقرُّب الأقرب، وإذا تحرَّز من مهروب تحرَّز منه وهو مُحْرِمٌ في صلاته يناجي ربَّه، مُلقيًا هموم الحياة عنه، مُتنعِّمًا بلقاء ربِّه، طالبًا أن يزداد قربًا من جلاله[١]. كذلك فإنَّ من علامة حُسن التقرُّب وقبوله، أن يلتذَّ المتقرِّب في صلاته، خاشعًا فيها، يودُّ أن يطول مقامه بين يدي ربِّه، فكلما تعب في صلاته زادت لذَّته بها، وكلما استكثر من نوافل الصلوات، وثابر على المحافظة على أدائها ازداد طمأنينة، وانشراحَ صدرٍ، وطلب مزيدًا منها.

كذلك، فإن من شأن المتقرِّب أن لا يغترَّ بما يَرِدُ عليه من خواطرَ، فيهرع إلى احتسابها نفحات، وتجلِّيات، وإلهامات! وليكن ميزانه في تقويم تلك الخواطر عرضَها على أصول الشريعة ومسلَّماتها؛ فإن وافقت ذلك قَبِلَها، وإلَّا ردَّها واعتقد بُطلانها.

إنْ لحظ المتقرِّب - ولو لمرة - أن موادَّه في شيء دعا به تحقَّق، أو أن مَخُوفَه من شيء صُرِف عنه، فليزدَدْ في شأن تقرُّبه؛ فإنَّ ذلك علامة قبوله، ومدعاة إلى اطمئنان قلبه، وتحفيز له إلى المثابرة والثبات على ما هو فيه. وليحذر - أشدَّ الحذر - من الاغترار بحُسن عمله والاعتماد عليه، أو ترك بعض ما درج عليه؛ معتقدًا أن مقامه هذا بات حقًّا له: بكسبه حازه، وباجتهاده ناله، وبجوازه استجازه !

(١) لعلَّ هذا ما يُفهم من إرشاد الإمام ابن حجر رحمه الله مما تقدَّم نقله عنه، لكن ذلك لا يعني - ألبتة - ترك الدعاء خارج الصلاة، وغاية ما يُفهم من كلامه أنَّ فقهه الثاقب بعظيم قَدْرِ الصلاة هو الذي حدا به إلى صرف شأن الدعاء أوَّلًا إلى حال الصلاة؛ لكونها حال التفرُّغ للتقرُّب، فشأن الإجابة فيها يكون أقرب.
قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» [مسلم].

- «**وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعلُه تردُّدي عن نفس المؤمن**».

التردُّد - في هذا الحديث - له تأويلان؛ أحدهما: أن العبد قد يُشرف على الهلاك في أيام عمُره من داءٍ يُصيبه، أو فاقة تنزل به فيدعو الله فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهَها، فيكون ذلك مِن فعله كتردُّدِ مَن يريد أمرًا، ثم يبدو له فيه تركه فيتركه ويُعرض عنه، ولا بدَّ له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجلَه؛ لأن الله قد كتب الفناء على خلقه، واستأثر بالبقاء لنفسه. والثاني - التأويل الثاني لمعنى التردُّد -: أن يكون ما رددتُ رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إيَّاهم في نفس المؤمن. وحقيقة المعنى على الوجهين: عطفُ الله على العبد، ولطفه به، وشفقته عليه(١).

لما كان الموت بهذه الشِّدَّةِ، واللهُ تعالى قد حتَّمه على عباده كلِّهم، ولا بدَّ لهم منه، وهو - تعالى - يكره أذى المؤمن ومساءَته، سمَّى ذلك تردُّدًا في حقِّ المؤمن(٢).

- «**يكره الموت، وأنا أكره مساءته**» .

الكراهة هنا لما يلقَى المؤمن من الموت وصعوبته وكربه، وليس المعنى أني أكره له الموت؛ لأن الموت يُورِده إلى رحمة الله ومغفرته. أما المساءة فيحتمل أن تكون بالنسبة إلى طول الحياة؛ لأنها تؤدي إلى أرذل العمر، وتنكُّسِ الخلق(٣).

**وعليه**؛ فإنَّ من عظيم كرامة المقرَّب عند الله، أن يدنوَ أجلُه ثم

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١١/ ٣٥٣)، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٢٣/ ٩٠).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ص٦٨٦.
(٣) انظر - أيضًا - فتح الباري، وإرشاد الساري بالعزو المتقدِّم إليهما.

تُجاب دعوتُه في زوال سبب موته، من مرض أو فقر مُهلك، فيعافيه ربُّه، ويرزقه فتزول فاقتُه، ثم لمَّا كان لا بدَّ من مجيء أجله وتحقُّقِه - لكونه من جملة الخلق النازل بهم الفناء - ينزل به الموت.

كذلك، وإنَّ من كرامة نفس المقرَّب عند الله، أن يأتيَ رسلُ الموت لقبض روحه، ثم يؤمرون بإبقائها؛ وذلك لتلطُّف الله بهذا العبد بتأخير ما هو نازل به - لا محالة - من صعوبة الموت وسكراتِه وكربه ! ثم ينزل به الموت بعدها؛ لأنَّ ربَّه يكره له أن ينكَّس في الخلق، وكَيْلا يصير إلى أرذل العمر ويقصُر إدراكُه، ويُدركه العجز والقُصور؛ وإن كرامته عند ربِّه أجلُّ من أن يناله ذلك !

فكيف - بعد ذلك - لا يشمِّر المشمِّرون، ويَجِدُّ المُجِدُّون، ويعمل العاملون، ويتنافس المتنافسون، وقد علموا أن ذلك الإكرام جميعَه ليس إلَّا نزرًا يسيرًا مما أعدَّه الله لأوليائه عنده ؟!

وبذا، نختم تَطوافنا في جنَبَاتِ ذينك الحديثين؛ ليكون المتقرِّب على بيِّنة من أمره، وليعلمَ عِظَمَ ما هو مُقبل عليه فيُقبل منشرحًا، أو ما هو شارعٌ فيه فيَجِدَّ السَّير، فَرِحًا بما وفَّقه الله مِن تيسير تقرُّبٍ إليه، وتفضَّل به عليه، متزهِّدًا فيما يجمع أهل الدنيا من حُطامها، ويحرصون على التنافس فيها. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يُونس: ٥٨].



# الفَصلُ الثّانِي

## العبادة طريق التقرُّب الأوحد



# تمهيد

لا ريب في أن ما يحويه هذا الفصل هو أُسُّ هذا الكتاب وقُطْبُ رَحاه؛ إذ عليه يدور معنى التقرُّب العملي، وإليه يرجع مَن شاء أن يتلمَّس معالم طريقه، ليشرع - بعدها - سالكًا سبيل التقرُّب متدرِّجًا فيه على بيِّنة، آخذًا نفسه بزمام العزم، لا يثنيه قاطع طريق؛ من هوى نفس، أو غواية شيطان، أو صُحبة سوء، أو تثبيط مثبِّط، أو أذى عدوٍّ، ماضيًا في تقرُّبه ولو فُتحت عليه دنياه، أو ضاق عليه عيشه، قد وحَّد في سيره همَّه، واستجمع في عمله همَّتَه، باحثًا - ما أمكنه - عن شأن يقرِّبه، منصرفًا عن صادٍّ يُبعده.

هذا - بإجمال - ما يحويه هذا الفصل، وما يرمي إليه.

وعليه، فقد حوى مبحثين، هما:

**أولًا**: العبادة؛ ماهيتها، ومفهومها.

**ثانيًا**: أُسس العبادة، وأنواعها، ووسائلها.



## أولاً: العبادة؛ ماهيتها، ومفهومها

**أ- ماهية العبادة.**

تعدَّدت تعريفات أهل العلم للعبادة، ولعل أجمع تعريف لها، وأخصره، وأيسره ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: **هي اسم جامع لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.**

ثم قال رحمه الله شارحًا مبيِّنًا(١):

فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحجُّ، وصِدْقُ الحديث، وأداء الأمانة، وبِرُّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميِّين والبهائم، والدعاء، والذِّكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

ثم قال رحمه الله: وكذلك حبُّ الله ورسولِه ﷺ، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدِّين له، والصبر لحُكمه، والشكر لنِعَمِه، والرضا بقضائه، والتوكُّل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك: هي من العبادة لله تعالى.

ثم استطرد رحمه الله شارحًا: وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمَرْضِيَّةُ له، والتي خَلَقَ الخَلْقَ لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

(١) انظر في التعريف وشرحه: كتاب "العبودية" لابن تيمية، ص١٩ وما بعدها.

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريَات: ٥٦] وبها أرسل جميع الرُّسل؛ كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هُود: ٥٠]، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرُهم لقومهم، وقد نعت اللهُ نبيَّه ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله؛ فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسرَاء: ١].

وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النّجم: ١٠].

وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجنّ: ١٩].

وقال في التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٣].

فالدِّين كلُّه داخل في العبادة؛ فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له .

وقد وصف النبيُّ ﷺ نفسه في مقام الوصف الأكمل الذي لا يُقاربه وصفُ ثناء، والمنزلة الأشرف التي لا تُسامِيها منزلة رفعة: «لا تُطروني كما أَطرت النصارى عيسى ابنَ مريم؛ فإنما أنا عبد، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه» [البخاري].

ثم بعد هذا البيان الشافي الكافي لماهية العبادة تطرَّق رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ذكر معناها اللغوي، فقال: والعبادة أصلُ معناها الذُّلُّ أيضًا، يقال: طريق معبَّد، إذا كان مذلَّلا قد وَطِئَتْه الأقدام. ثم استدرك قائلًا: لكنَّ العبادة المأمورَ بها تتضمَّن معنى الذُّلِّ ومعنى الحبِّ؛ فهي تتضمَّن معنى الذُّلِّ لله تعالى بغاية المحبَّة له(١)، ثم أتمَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُراده بقوله: فجنس المحبَّة تكون

---

(١) ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع بعض مراتب الحبِّ، وقد ضربت عن ذكرها صفحًا -هنا- خشية الإطالة، وكما ذكر تلميذه ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلك المراتب وأسماءها مفصَّلة في كتابه: "روضة المحبِّين ونُزهة المشتاقين"، ص١٨ وما بعدها.

لله ورسوله كالطاعة؛ فإنَّ الطاعة لله ورسوله، والإرضاء لله ورسوله ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

ذاك هو طريق التقرُّب، قد سُدَّتْ كلُّ الطرق دونه، فإنَّ المتقرِّب كلما ازداد عبوديَّة لله كلما ازداد نصيبه من القُرْب، ولا يكون ذلك إلَّا باستحضار معنى العبودية باطنًا في كلِّ عمل يؤدِّيه ظاهرًا(١)؛ وأنه بملاحظة هذا المعنى يجمع بين تقرُّب روحه، وتقرُّب قلبه، وتقرُّب جسده؛ ولا يتدرَّج المتقرِّبون في منازلهم إلا تبعًا لمدى استحضار كلٍّ منهم لتلك النية، فإذا خلت أعمالهم منها كانت عباداتهم صورًا لا أرواح فيها، وخيالات لا حقائقَ لها. وبهذا الفهم يتقلَّب العبد في صنوف تقرُّبه؛ فلا يضرُّه - والحال هذه - قلَّ عمله أو كَثُر؛ فإذا قلَّ أكثرته نيَّتُه، وإذا كثر باركته نيَّتُه فتضاعف، وقد قيل: إنَّ أهل اليقظة عاداتُهم عبادات، وأهل الغفلة عباداتهم عادات!

**ب- مفهوم العبادة.**

العبادة - عند بعض المتقرِّبين - مقتصرة في تطبيقها العملي على العبادات المحضة التي ورد الشرع بها أمرًا أو استحبابًا؛ سواء كانت أركانًا، أو واجباتٍ، أو سننًا. لكنْ ثمة مفهوم قد يغفل عنه أولئك هو أوسع دائرة يشمل مناحيَ الحياة في تفاصيلها كاملة!

هذا المفهوم هو مقصود المتقرِّبين الأكمل، وهو - إلى جانب الاجتهاد بالقيام بكل مأمور، والانتهاء عن كل منهيٍّ - فإنه يستغرق

---

(١) ثمة مصنَّف بتمامه بعنوان: «استحضار واستشعار نية التقرُّب إلى الله تعالى في العبادات والعادات»، للعلَّامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، بجمع وإعداد مساعد ابن عبدالله السلمان، فانظره تنل خيرًا كثيرًا بإذن الله تعالى.

مناشط العبد وأعماله كافة، فلا يخرج شيء منها عن دائرة العبادة؛ فكما أن العبادة تحقِّق التزامًا في العبادات المحضة، وفي المعاملات المشروعة، والأخلاق المَرْضِيَّة، فإن المفهوم العامَّ للعبادة لا بدَّ من أن يحقِّق آثارًا إيجابية ملموسة في سائر سلوك العابد؛ في حِرفته، وتعلُّمه، وتعليمِه، ووظيفته، وتجارته، بل وعاداته المباحة متى صلحت نيَّته في ذلك؛ فنومه عبادة، وأكله عبادة، وزَواجه عبادة، هذا المفهوم العامُّ للعبادة هو الذي يعنينا في مقام التقرُّب؛ وهو الذي جاء به ديننا الحنيف، هو مفهومٌ يجعل المتقرِّب يجتهد - مسدِّدًا مُقارِبًا - في أن يقضيَ حياته بأكملها في عبادة مسخِّرًا في ذلك؛ روحه، نفسه، قلبه، لسانه، جوارحه، ليكون كيانه أجمع متلبِّسًا - دومًا - بالعبادة، فهو ينوي في حياته العملية وفي عاداته المباحة التقرُّبَ إلى الله، تمامًا كما ينوي ذلك في أداء شعائره الدينية؛ فالعالم متقرِّب، والمتعلِّم، والمصلِّي المزكِّي الصائم الحاجُّ، وواصل الرَّحِم، والمجاهد، كما أن الطبيب والمهندس والتاجر والصانع والزارع؛ كلُّ أولئك - إنْ أحسنوا أعمالهم ابتغاء رضوان ربِّهم - كانوا في عداد المتقرِّبين، حتى المحسن لحيوان، والواضع لقمة في فم زوجته، والواضع شهوته في حلال، بل الآكل الشارب النائم كلُّهم متقرِّب! والعبرة في ذلك كلِّه استحضار العبد نية السعي إلى محبة الله ورضاه وابتغاء الدار الآخرة في كلِّ شأن يعمله. فانظر إلى عبدٍ هكذا شأنه كم يستجمع في عمره من حسنات!



## ثانيًا: أُسس العبادة، وأنواعها، ووسائلها

بعد أن عرفت الطريق الأوحد للتقرُّب - عنيتُ العبادةَ بمفهومها الشامل - كان لا بدَّ لك من معرفة أسس تلك العبادة، وأنواعها، ووسائل الولوج في ذلك الطريق؛ لتسلكه على بيِّنة؛ لتصل المراد، ولتكون من خُلَّصِ العباد.

**أ- أسس العبادة.**

إن للعبادة أُسسًا قلبية ثلاثة، وأساسًا عمليًا؛ أما الأسس القلبية فالإخلاص والتذلُّل والمحبة، وأما العملي فالاتباع بموافقة المشروع.

**فالإخلاص**، يكون في كمال التوحيد في قصد الطاعة، وخلوص توجُّه النية عند أدائها؛ فكلما باشر العبدُ عملًا (عباديًّا محضًا، أو عملًا دنيويًّا، أو عادة، أو مباحًا، أو عامَل خَلقًا وخالطهم، أو حتى لابَسَ نعمة، أو نزل بساحته بلاء، هرع في جميع ذلك مبادرًا إلى استحضار نية قصد الطاعة لله تعالى والتقرُّب إليه؛ لتكون بذلك تصرفاته جميعها عبادة !

وأما **التذلُّل**؛ وهو الخضوع فمردُّه إلى استحضار دائم لكمال التعظيم لله تعالى؛ فلا يستصغر معصية ولو هانت، ولا يستكثر طاعةً ولو جلَّت؛ ليشعرَ - دومًا - بأنه متجرِّئٌ بمعصيته، ومقصِّر في طاعته؛ وكلما ازداد في قلبه مثل هذا الشعور كلَّما ازداد تقرُّبًا إلى ربِّه.

وأما **المحبة** فهي مؤسَّسة على المعرفة بالله تعالى؛ فإذا تفقَّه العبد

الفقهَ الأكبر فعلم من معاني أسماء ربِّه الحسنى، وصفاته العُلى، تيقَّن - بما علم - كمالَ جلال معبوده، وعظيم قدرته، وتمام سلطانه، ومحبَّته - سبحانه - لأوليائه، وسعة حِلْمِه على مَن عصاه، وشدة عذابه على مَن حادَّه وعاداه.

أقول: كلَّما ازداد فقهًا في ذلك كلَّما امتلأ قلبه محبَّة لربِّه، فإذا صلَّى ملأ كيانَه وقوفُه بين يدي مَن يحب، وإذا تصدَّق تصدَّق خَجِلًا لقلة ما بذل لإرضاء مَن يحب، وإذا صام استقلَّ نهار صيامه وودَّ لو واصل ليلًا معه، أو ودَّ لو استطال شهرُ الصيام ولو يومًا طلبًا لمحبة مَن يحبّ، وإذا حجَّ ففارق حَزِنَ لمفارقة ديار الحجِّ، وتضرَّع أن يأذن له ربُّه بعَوْدٍ مرَّات بعد مرَّات!

وخلاصة ذلك: أن محبَّة الله هي روح أعمال المتقرِّب، ولا سبيل لقَبول عملٍ خلا من محبة.

تلك هي أسس العبادة القلبية، فلا بدَّ من استجماعها عند أداء الأعمال، وفي كلٍّ من هذه الثلاثة يتفاوت قَدْرُ العابدين عند ربِّهم، بقَدْرِ درجة استحضارهم لها.

أما **الأساس العمليُّ**، فهو أن يكون العمل صوابًا، ولا يكون صوابًا إلَّا إذا كان موافقًا للشرع، متابعًا للسنَّة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣١]؛ فعلامة الصدق في محبَّة الله تعالى، وإرادة التقرُّب: تعلُّم الشرع ومتابعة السنَّة، وكما أنه لا يُتقرَّب إلى الله تعالى إلا بعبادته، فإنه لا يُعبد اللهُ - سبحانه - إلا بما شرع. وإن العبد كلما ابتعد عن السنَّة والاتباع كلما صُدَّتْ بين يديه أبواب التقرُّب، وانغلقت عليه مسالكُه.

وتأمَّل - وفَّقك الله - قولَ النبيِّ ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أنَّ موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتَّبعني» [أحمد]، «صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي» [البخاري]، «لتأخذوا[1] عني مناسككم» [مسلم].

وانظر - زادك الله فقهًا - إلى الدعاء الجامع في فاتحة الكتاب: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٦-٧]، انظر كيف استجمع هذا الدعاءُ كلَّ خير، واستبعد كلَّ شرٍّ؛ فالخير كلُّه في الهداية والثبات على الصراط الصواب الموصل إلى الغاية، والذي هو وسط بين طرفين، فطرف العلم من غير عمل طريق المغضوب عليهم، وطرف العمل بغير علم طريق الضالِّين، والصواب الجمعُ بين العلم والعمل، وقد حكى الله مقولة يهود: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البَقَرَة: ٩٣]، هم عرفوا الحقَّ ولم يتبعوه، وحكى - سبحانه - حال النصارى بقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] أعمالهم خاسرة؛ حيث إنها لم تُبْنَ على علم. وقد هدى سبحانه المسلمين إلى الصواب بالجمع بين العلم والعمل ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

ثم انظر - رعاك الله - إلى تضمُّن الشهادتين أُسس العبادة؛ فقد تضمنت معنى الإخلاص والتذلُّل والمحبة، وكذلك الاتباع، فإن شهادة

(١) اللام في قوله ﷺ: «لتأخذوا»، هي لام الأمر؛ ومعناه: خذوا مناسككم، وهكذا وقع في رواية غير مسلم، وتقديره: هذه الأمور التي أتيتُ بها في حجَّتي من الأقوال والأفعال والهيئات هي أمور الحجِّ وصفتُه، وهي مناسككم، فخذوها عني، واقبلوها، واحفظوها، واعملوا بها، وعلِّموها الناس، كما بيَّنه الإمام النوويُّ في شرحه هذا الحديث.

أنْ لا إله إلا الله تضمَّنت أسس العبادة القلبية، وشهادة أنَّ محمدًا رسول الله اقتضت صوابَ العمل بحُسن الاتباع للسنَّة، فتأمَّل.

فيا أيها العابد المتقرِّب استجمعْ ما استطعت في قلبك: إخلاصًا وتذلُّلًا ومحبة، ولا تخالف - ألبتة - مشروعًا في عبادة، والزم سنَّة نبيِّك ﷺ تُفْلِحْ في طريق تقرُّبك وتبلغْ غايتَك.

**ب- أنواع العبادة، ووسائلها.**

قد تقرَّر - فيما تقدَّم - أن العبادة هي الطريق الأوحد في التقرُّب، وأن العابد لا بدَّ له من أن يتحرَّى في عمله أخلصَه وأصوبَه؛ فإذا علمت ذلك فأنت على خطًى ثابتة في سير تقرُّبك، ولم يعد أمامك - الآن - إلا معرفة أنواع عبادتك؛ لتشرع بعدها في التفقُّه بالوسائل التي تحقِّق لك كلَّ نوع منها.

**أما الأنواع**؛ فيمكن تقسيمها باعتبار حيثيَّات خمس، هي:

- **العبادة من حيث الاستكمال.**

والمقصود: أن المتقرِّب إذا أراد تكميل عبادته كان لا بُدَّ له من أن يجمعَ بين ما ظهر من عبادته وما بطن، فإذا صلَّى بظاهره استحضر صلاة قلبه بخشوعه، وإذا زكَّى استحضر إشفاق قلبه ورحمته بالمحتاج، وإذا صام استحضر طُهْرَ قلبه بالخضوع والتفاني في خدمة معبوده، وإذا حجَّ استجمع قلبًا مخلصًا لله توحيدًا بحجِّ بيته، وقل مثل ذلك في كلِّ تقرُّب مشروع.

- **العبادة من حيث محل العمل بها؛**

فهي بهذ الاعتبار إمَّا أن تكون قلبية، أو بدنية (بالجوارح)، أو قولية (باللسان)، أو مالية (بالإنفاق) أو أن يجتمع بها محلَّان أو أكثر؛

كالصلاة - مثلًا - هي عبادة قلبية باستحضار الخشوع، وبدنية باستحضار الهيئات، ولسانية باستتمام الأقوال المشروعة فيها، بل قد يدخل فيها أنها عبادة مالية أيضًا! ألم تر أن المصلِّي إذا صرف وقته في صلاته قد يفوته - فيما يظهر - بعضُ تحصيل مال في تجارة أو غيرها.
﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجُمُعَة: ١١].

- **العبادة من حيث توصيفها .**

فهي إما أن تكون عبادة **اعتقادية**؛ أي: قلبية محضة: كالإخلاص في التوحيد، والولاء والبراء، والمحبة، والخوف، والرجاء، والصبر، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة. . . وهذه العبادة هي أصل أعمال الجوارح، وإليها المنتهى في قَبولها أو ردِّها.

وإما أن تكون العبادة **عمليةً**؛ ويدخل في ذلك أعمال البدن، وأقوال اللسان، ومعاملة الخَلْقِ بالخُلُق، كما يدخل فيها المباح من الأفعال والأقوال إذا صلحت النية فيها.

- **العبادة من حيث الأحكام المتعلقة بها .**

فالعبادة تجري بها الأحكام الخمسة: ففعل الواجب عبادة، واختيار المستحب عبادة، والانتهاء عن الحرام عبادة، والتنزُّه عن ارتكاب المكروه عبادة، وفعل المباح بنية صالحة؛ لجلب نفع، أو دفع ضرٍّ، أو تَقَوٍّ على طاعة، أو ابتعاد عن محرَّم؛ كلُّ ذلك عبادة !

- **العبادة من حيث القَبول والردِّ .**

يجمع هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ الجامع: «مَن عمل عملًا ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ» [البخاريُّ، ومسلمٌ بلفظه].

فكلُّ عمل - ولو توفَّر فيه إخلاص - إن لم يكن متابعًا فيه صاحبه لهَدْيِ النبيِّ ﷺ وسنَّته فهو مردود عليه؛ تمامًا، لو أن العمل توفَّرت فيه المتابعة، ثم لم يكن على جادَّة الإخلاص فهو مردود، والقاعدة في تفاضل الأعمال - قبولًا أو ردًّا -: الإخلاص والموافقة، وخير العمل: أخلصه وأصوبه. وفي ذلك يقول الإمام النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمِ النبيِّ ﷺ؛ فإنه صريح في ردِّ كلِّ البدع والمخترعات)[1]، ويقول العلَّامة ابن رجب الحنبليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا الحديث هو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث: «الأعمال بالنيَّات» ميزان للأعمال في باطنها؛ فكما أن كلَّ عمل لا يُراد به وجهُ الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عمل لا يكون عليه أمرُ اللهِ ورسولِه فهو مردود على عامله، وكلُّ مَن أحدث في الدِّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدِّين في شيء)[2].

هكذا فليحرص المتقرِّب في طريقه على استصحاب هذين الأصلين دومًا.

- **وسائل العبادة:**

أما **الوسائل** فمتعلَّقها توصيف العبادة ما بين اعتقادية وعملية؛ فيتحرَّى المتقرِّب أيَّ الوسائل هي الأقرب إلى تطبيق عبادته فيعمد إليها ويحرص عليها؛ سواء كانت عبادته اعتقادية (قلبيَّة)، أم عملية (بدنية، أو لسانية، أو خلُقية)، ويدخل في ذلك كلِّه أن يجتهد العابد في التخلِّي عن النقائص والرذائل، ومن ثَمَّ التحلِّي بالكمالات والفضائل. وتفصيل القول في ذلك على النحو الآتي:

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج (١٢/ ١٦).
(٢) جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم، ص١٧٦.

**١- وسائل العبادة الاعتقادية (القلبية) .**

أ- أن يتفقَّه بأمراض قلبه الخفيَّة ويعالجها، فيكون كالطبيب لأدواء قلبه؛ ويكون ذلك باستصحاب مخالفة الهوى، ومراقبة الاختيار؛ ومن ذلك - مثالًا لا حصرًا -: مخالفة حبِّ الرياء، باستحضار الإخلاص في الأعمال (نية التقرُّب)، ومخالفة العُجب باستحضار التواضع حتى مع عظيم العمل، ومخالفة حبِّ المديح باستحضار عظيم الجزاء، ومخالفة اليأس باستحضار حُسن الظنِّ، ومخالفة التعلُّق بالمحبوبات الدنيوية باستحضار حبِّ الله تعالى، وعظيم عيش الآخرة، وقِسْ - إن شئت - على ذلك ما تشاء، والضابط في ذلك أن يستحضر في كلِّ عمل يعمله نية التقرُّب إلى الله، بعد أن يُخلي قلبَه مِن تعلُّقٍ بسوى الله.

ب- أن يتفقَّه بمداخل الشيطان على قلبه، فيوصدها ما استطاع .

(مَثَلُ القلب كمَثَلِ حصنٍ، والشيطان يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولي عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ومداخلُ الشيطان وأبوابه صفاتُ العبد، وهي كثيرة؛ فمن أبوابه، العظيمة: الحسد، والحرص؛ فمتى كان العبد حريصًا على شيء أعماه حرصُه وأصمَّه، وغطَّى بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان، وكذلك إذا كان حسودًا، فيحسِّن الشيطان عنده كلَّ ما يوصله إلى شهوته، وإنْ كان منكرًا أو فاحشًا! وقل مثل ذلك في أبواب الغضب، والشهوة، وحبِّ التزيين؛ فلا يزال الشيطان يدعو المتزيِّن إلى عمارة الدار وتزيينها، والتزيُّن الفائق في الثياب والأثاث حتى يخسر الإنسانُ طولَ عمره في ذلك، ومن الأبواب - أيضًا - حبُّ المال فيطلبه من غير وجهه، ويصرفه في غير وجهه، ويبخل به، ويخشى فقرًا فيمنع حقًّا!

فإذا قُلِعَتْ من القلب أصولُ هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خَطَراتٌ واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذِكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى(١).

فإنْ عرفت - أيها المتقرِّب - علاجَ أمراض قلبك، وأوصدت على الشيطان مداخلَه، صار قلبك متخلِّيًا عن نقائصه، متهيئًا لكمالاته؛ فإنْ طلبت - حينئذٍ - ملأَه برجاء الله اتسع، أو بخوف منه استجاب، أو بمزيد حبٍّ له امتلأ، أو بتوكُّل عليه توكَّل، أو بإنابة إليه أناب، أو باستعانة به استعان، أو بخشوع لجلاله خشع.

والحال أن كثيرًا من المتقرِّبين خالطت قلوبَهم الأدواءُ، وفُتِّحَتْ أبوابُها للوساوس، ثم إنَّ أحدهم ينافس أقرانه في تقرُّبه حسدًا وطمعًا، فتراه يزايد في قربه المتقرِّبين بطرًا وعلوًّا، ويعيب على السالكين مسالكهم كأنْ لا مسلكَ إلا ما سلك، ولا طريق تقرُّب إلا ما طرق، فأنَّى لأمثال هؤلاء تحلِّيًا بفضائلَ، أو حيازةً لتقرُّب؟!

**٢- وسائل العبادة العملية (بدنية، أو لسانية، أو خلُقية).**

هذا النوع من العبادة يلزمه - حتمًا - لقبوله أمران؛ أوَّلهما استحضار الإخلاص عند كلِّ عمل، وقد تقدَّم تفصيلُ ذلك - والآخر التفقُّه في الدِّين؛ بطلب العلم والجِدِّ فيه (الهمَّة العالية)(٢)، ثمَّ إنَّ هذا

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، ص١٤٨ وما بعدها، نقلته باختصارٍ ويسيرِ تصرُّف.

(٢) اقرأ - إن شئت - مزيدَ توسُّع في شأن علوِّ الهمَّة، كتاب "الهمة العالية؛ معوِّقاتها ومقوِّماتها" لمحمد بن إبراهيم الحمد، بتعليق سماحة العلَّامة عبد العزيز بن عبدالله ابن باز رَحِمَهُ اللهُ، فهو جِدُّ نافع.

العلم لا بدَّ من كونه صافيَ المورد ليكون نافعًا، ولا يتأتَّى ذلك إلا بالنَّهْل من الكتاب والسُّنَّة، بفقه العلماء الثقات للنصوص واستنباطهم الأحكام منها.

يقول ابن القيِّم رحمه الله: (صفاء العلم هو الذي يهدي صاحبَه إلى الغاية المقصودة، بالاجتهاد والتشمير؛ فإن كثيرًا من السالكين - بل أكثرهم - سالك بجدِّه واجتهاده، لكنه غيرُ منتبهٍ إلى المقصود؛ **فصفاء العلم هو الذي يصحِّح همَّة القاصد** . . . وأعلى الهِمَم همَّة اتصلت بالحقِّ - سبحانه - طلبًا وقصدًا، وأوصلت الخلقَ إليه دعوةً ونُصحًا. وهذه همَّة الرُّسل وأتباعهم)[١].

وفي شأن الهمَّة قال رحمه الله: (ما أعجب شأن الهِمَم وتفاوتها . . . وإذا أردت أن تعرفَ مراتب الهِمَم فانظر إلى همَّة رسول الله ﷺ حين عُرضت عليه كنوزُ الأرض فأباها، ومعلومٌ أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربِّه تعالى فأَبَتْ له تلك الهمَّة العليَّة أن يتعلَّق منها بشيء مما سوى الله ومحابِّه)[٢].

ثم انظر - رحمك الله - إلى همَّة ربيعةَ بنِ كعبٍ الأسلميِّ رضي الله عنه، وقد قال له رسول الله ﷺ: «سَلْنِي»، فقال أسألك مرافقتك في الجنة، فقال عليه الصلاة والسلام: «أعنِّي على نفسك بكثرة السجود» [مسلم، وأبو داود].

فتأمَّل - أيها المتقرِّب -: كيف علت الهمَّة في الطلب، وكيف كان الإرشاد النبويُّ إلى علوِّ الهمَّة في الوسيلة.

---

(١) مدارج السالكين له رحمه الله (٣/ ٦٧٠ وما بعدها).
(٢) المرجع المتقدِّم (٣/ ٦٧٥).

ولنشرع - بعدها - في بيان وسائل كلٍّ من العبادات البدنية، واللسانية، والخلُقية؛ ويَصدُق في وصفها أن تكون دليلًا عمليًّا لكلِّ متقرِّب.

أما **العبادات البدنية**، فهي التي تقوم بالجوارح، ويندرج فيها - كما لا يخفى -: الصلاة، والصيام، والحجُّ، ومِثْلُ ذلك الزكاة؛ فالزكاة فضلًا عن كونها عبادة مالية، إلا أنَّ المال يُكسَب - غالبًا - بالكسب بالجوارح، ثم إن الزكاة تؤدَّى بيدٍ عُليا مُنفقة.

وكلٌّ من تلك العبادات محصَّن بسنن تطوُّع تحوطها؛ **فالصلاة** محصَّنة بالنوافل؛ من سنن راتبة وغير راتبة، وقيام ليل، وصلاة ضحى، وتنفُّل مطلق؛ فكُمَّلُ الصالحين مواظبون على تلك النوافل يستكثرون منها ما استطاعوا، وهم أحرص ما يكونون منها على قيام الليل شعار الصالحين، ودأبهم، يتململون في فُرشهم، فلا يستطيع أحدهم إلا أن يقوم لربِّه، ثم هم يُخفون قيامهم عن أعين الخلق ومسامعهم، يمحِّصون بذلك إخلاصهم في تقرُّبهم، راجين أن يُخْفِيَ اللهُ لهم ثوابًا لم تره عين، ولم تسمع به أُذن، ولم يخطر على قلب بشر؛ فإذا قَدِموا على مَن أقاموا له ليلًا - سبحانه - أقرَّ أعينَهم بذلك: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: ١٦-١٧].

**والزكاة** محصَّنة بنوافل التصدُّق والتبرُّعات وكفالة الأيتام والتكفُّل بالعلاج وبالتعليم وبالإطعام وبالصدقات الجارية والسعي على الأرامل وبأوقاف الخير والسقاية لمحتاجيها، والباب - في ذلك - قد أوسعه الإسلامُ فلا يُعْدَمُ مسلمٌ باب خير لنفع الناس؛ يتقرَّب بتلك القُرَبِ إلى ربِّه.

وصوم **رمضان** محصَّن بنوافله؛ من صوم **تطوُّع مطلق** في سائر الأيام - إلا في أيام خمسة ورد نهي عن صومها، وهي: يوما العيدين، وأيام التشريق الثلاثة - ومن نفل الصوم صيام يوم وإفطار يوم (وهو صيام نبيِّ الله داود عليه السلام، كما صحَّ بذلك الخبرُ: «كان عليه السلام يصوم يومًا ويُفطر يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى» [متفق عليه].

أما **التطوُّع المقيَّد في الصيام** فجَمٌّ غفير، أذكر منه[1]:

- صيام شابٍّ اشتدت به شهوته ولم يستطع نفقة التزوُّج.
- صيام الإثنين والخميس.
- صيام أيام ثلاثة من كل شهر قمريٍّ، ومستحبٌّ كونُها أوسط الشهر، وهي ثلاث عشرة منه، وأربع عشرة، وخمس عشرة.
- صوم يوم عاشوراءَ، وهو اليوم العاشر من شهرِ محرَّم، ويُسَنُّ أن يصوم معه يومًا قبله أو يومًا بعده؛ مخالفةً ليهودَ الذين يُفْرِدونه بالصوم.
- صوم يوم عرفةَ، وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحِجَّة، واستحبابه خاصٌّ بمن لم يكن حاجًّا واقفًا بعرفة.
- صوم ستة أيام من شهر شوال.
- صوم ما تيسَّر من شهر محرَّم.
- صوم ما تيسَّر من شهر شعبان.

ذلك كلُّه حتى يستعظمَ المؤمنُ صومَ شهر رمضان؛ فكيف يفرِّط - بعدها - في صوم ما افترضه الله عليه، وهو يتنفَّل بصومه تقرُّبًا إلى ربِّه، ويتطوَّع بذلك ابتغاء الزُّلفى لديه؟! وليتعوَّد الصومَ تهذيبًا لنفسه وتطويعًا لها، وتدريبًا لها على صوم الفريضة.

(١) ما ذكرته من صُنوف التطوُّع المقيَّد في الصيام، جميعه قد صحَّ به الخبر في السنَّة، وقد فصَّلت ذِكْرَ ذلك بدليله في مصنَّف سمَّيته "الصوم جُنَّة"، فانظره إن شئت توسُّعًا.

أما الحجُّ - فريضة العمر - فقد شُرعت العمرة صلةً مستمرة له في أيام السنة جميعها؛ فهي تُعَلِّقُ قلبَ المؤمن بالكعبة البيت الحرام؛ فإن كان لم يحجَّ تهيَّأ له، وتشوَّق إليه، وعظَّم شأنَه، وإن كان قد حجَّ فإنَّ ذلك يزيد تعلُّق قلبه ببيت ربِّه الذي حجَّ إليه، فيزداد بعمرته تقرُّبًا إليه .

فانظر إلى شأن السنَّة كيف حصَّنت فروض الإسلام، وكيف علَّقت قلوب المسلمين بحبِّ نبيِّهم ﷺ وحُسن اتباعه؛ يستذكرون عظيم فضله وجليلَ شأنه كلَّما أدَّوا سنَّة من سُننه عليه الصلاة والسلام.

وأما **العبادات اللسانية** (القولية)، فإنَّ أعظم مِضمار سباق المتقرِّبين إنما هو الذِّكْر، وخيرَ ثواب المتقرِّبين مدَّخر للذاكرين، فلم يسبقهم أحد من الخلق، وهم المفرِّدون - بوصف رسول الله ﷺ - لهم، أفلا ترى قوله عليه الصلاة والسلام: «سيروا هذا جُمْدَانُ[1]، سبق المفرِّدون»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات» [مسلم]، لذا كان على المتقرِّب - بعد إعلاء همَّته وجَدِّ سيره في الذِّكر - أن يتحرَّى جوامع الأذكار المشروعة، وأن يعلم أقسامها فينوِّعَ فيها ما استطاع، وأن يتفقَّه في معانيها، مؤدِّيًا لها بخشوع وكمال تأدُّب؛ فكما أنَّ الذاكرين قد سبقوا الخلق فلم يلحق بهم أحد، كذلك فإنَّ المتقرِّبين بالذِّكر يتنافسون فيما بينهم أيُّهم يسبق أخاه.

وفي علوِّ مقام الذكر على سائر أعمال التقرُّب قوله عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقَوْا

(١) جُمدان: جبل في طريق مكة، كما أتى مبيَّنًا في نصِّ الرواية: «كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان».

عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «ذِكْرُ الله» [أحمد، والترمذي، وابن ماجه].

وهاك - أخي المتقرِّب - بعضَ جوامع الأذكار - بما يتسع له المقام - يتبعها التمثيل لأقسام الأذكار .

**أما الأذكار الجامعات فمنها:**

- [سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم].
قال عليه الصلاة والسلام: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [متفق عليه](١).
- [سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر]، قال ﷺ: «أَحَبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا يضرُّك بأيِّهن بدأتَ» [مسلم].
- [سبحان الله وبحمده؛ عددَ خلقه، ورضا نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومِدادَ كلماته] ثلاث مرات .
أرشد رسول الله ﷺ أمَّ المؤمنين جويريةَ بنتَ الحارث رضي الله عنها، فقال: «لقد قلتُ بعدك أربعَ كلماتٍ، ثلاث مرات، لو وُزِنَتْ بما قلتِ اليومَ لوَزِنَتْهُنَّ: سبحان الله وبحمده؛ عددَ خلقه، ورضا نفسه، وزِنَةَ عرشه، ومِدادَ كلماته» [مسلم].
- [لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير]. مائة مرة، أو أكثر. قال عليه أزكى صلاة

(١) بعد أن أورد الإمام البخاريُّ هذا الحديث في موضعين من صحيحه، ختم به صحيحَه، كما أفاده النوويُّ في الأذكار.

وأتمُّ تسليم: «مَن قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدْلُ عَشْرِ رقابٍ، وكُتب له مائةُ حسنة، ومُحيت عنه مائةُ سيئة، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» [متفق عليه](١).

- [لا إله إلا الله].

قال ﷺ: «أفضل الذِّكرِ: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله» [الترمذي(٢)، وابن ماجه، والحاكم، والنَّسائيُّ في "عمل اليوم والليلة"].

- [لا حول ولا قوة إلا بالله].

وهذا ذكر جامع هو كنز من كنوز الجنة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «ألا أدلُّك(٣) على كلمة من كنز الجنة؟ قل: لا حول ولا قوة إلا بالله» [متفق عليه].

وهاك وصيةً جامعة أوصى بها رسول الله ﷺ: «لا يزال لسانُك رَطْبًا من ذكر الله» [أحمد والترمذي].

هذا، وإن أعظم الذكر على الإطلاق تلاوةُ القرآن الكريم؛ فإن

---

(١) لمسلم زيادة في آخره: «ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر».

(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم. اهـ. وقد ذكرته هنا - مع كونه من حديثه، وهو صدوق يخطئ، كما في التقريب - لكون متعلَّق لحديث فضائل الأعمال، ولأن عليًّا بن المَدِيني وغيرَه قد روَوْا عن هذا الراوي (موسى).

(٣) الصحابيُّ الذي دلَّه رسول الله ﷺ على هذا الكنز هو أبو موسى الأشعريُّ (عبد الله ابن قيس) رضي الله عنه.

الذاكر - في هذا المقام - يتقرَّب إلى الله تعالى بكلامه، فأيُّ ذكر يعدل ذلك؟! وقد قال عليه الصلاة والسلام: «اقرؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه» [مسلم]، و «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» [الترمذي].

هذا، وقد يغفل كثير من التالين لكتاب الله عن أن تمام الأجر في تلاوتهم إنما يكون حال تدبُّرهم لما يتلون؛ وذلك باستحضار التفكُّر فيما يتلو التالي مع التأمل، وأن يجتهد - ما استطاع - في مزج المعاني بعقله وملئه بها شغاف قلبه، واستشراف أنوارها بروحه، وأن يعمل على إظهارها عملًا في سلوكه وواقع حياته ليعيشَ القرآن، ويعيش به، بل ويعيش له؛ فإذا ارتقى التالي لآيات الله إلى هذا كان متقرِّبًا إلى الله تعالى حقَّ التقرُّب. وهنا مزيَّة التزوُّد بالعلم ليكون تفكُّر التالي على بصيرة، وفي قريب هذا المعنى يقول الإمام الحسن البصريُّ رحمه الله (ما زال أهل العلم يعودون بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر، ويُناطقون القلوبَ حتى نطقت بالحكمة)[1].

(والمقصود أن التلاوة الحقيقية، وهي تلاوة المعنى واتباعُه؛ تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاءً عن نهيه، وائتمامًا به، حيثما قادك انقَدْت معه؛ فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من تلاوة اللفظ، وأهلُها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة؛ فإنهم أهل تلاوةٍ ومتابعةٍ حقًّا)[2]. فيا أيها المتقرِّب

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، لابن القيِّم ص٢٥٥.
(٢) المرجع المتقدِّم، ص٦٢.

الذاكر بالتلاوة، تدبَّر ما تتلو، واتبع ما تتلو، ليتمَّ لك المراد .

أما أقسام الأذكار، والتمثيل لها؛ ليعمد الذاكر إلى التنويع بها، فهي أقسام أربعة(١) :

- أذكار مشروعة في أحوال ومناسبات؛ كدعاء الاستخارة، ودعاء السفر، ولبس جديد الثياب، ودخول مسجد وخروج منه، وتشميت عاطس، وتهنئة بنكاح، ودخول سوق، ونزول غيث، وغير ذلك مما يستجدُّ حصوله ويتكرر مما لا يتسع المقام لتفصيله(٢).
- أذكار مختصة باليوم والليلة؛ مما يعرض للذاكر من لدن استيقاظه إلى نومه(٣).
- أذكار مختصة بالعبادات؛ الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصيام والحجُّ. ويتبع ذلك أذكار في صلوات مخصوصة؛ نحو: صلاة الاستسقاء، والكسوف، والعيدين(٤).
- أذكار غير مقيَّدات بأوقات أو مناسبات؛ نحو:
- قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير.
- قول: (سبحان الله عددَ ما خلق في السماء، وسبحان الله عددَ ما

---

(١) أذكر - هنا - تلك الأقسام إجمالًا، دون تفصيل لها، ولا استدلال عليها؛ خشية الإطالة؛ فالقصد تعريف المتقرِّب بها، وإرشاده إليها وحسب.

(٢) انظر - إن شئت - توسُّعًا كتابي " منتقى الأذكار".

(٣) انظر أيضًا - إن شئت كتابي " وِرد اليوم والليلة " ، فقد رتبت فيه تلك الأذكار بحسب حصولها في يوم الذاكر وليلته.

(٤) قد فصَّلت ذلك - أيضًا - في كتابي «منتقى الأذكار»، فانظره إن شئت.

خلق في الأرض، وسبحان الله عددَ ما بين ذلك، وسبحان الله عددَ ما هو خالق، والله أكبرُ مثلَ ذلك، والحمد لله مثلَ ذلك، ولا إله إلا اللهُ مثلَ ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثلَ ذلك)(١).

وأما **العبادة الخلُقية**؛ فهي التي يغفل عنها كثير من المتقرِّبين، فترى أحدَهم لا يُزاوِج بين حُسن التعامل وحُسن التزام العبادات؛ فيكون تقرُّبه خِداجًا ناقصًا لا يبلغ به مرادَه.

أما المتقرِّب الحقُّ فهو مَن فَقِهَ قولَ النبيِّ ﷺ: «إنما بُعِثْتُ لأتمِّم صالح الأخلاق» [أحمد في مسنده، ومالك في "موطئه" والبخاري في "أدبه المفرد"]، وأن ذلك تصريح نبويٌّ بأن دعوات الرسل جميعًا عليهم السلام إنما كانت دومًا إلى ضرورة امتثال الخلُق القويم في حياة الناس؛ سواء في ارتباط الأخلاق بالأمور الدينية، أو في ارتباطها بالأمور الاجتماعية.

وعليه، فإن حُسن الخلُق سبيل يسير للمتقرِّبين لا يقلُّ شأنًا عن العبادات البدنية، ومصداق ذلك قول النبيِّ ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحُسن خلُقه، درجةَ الصائم القائم» [أبو داود، والترمذي]، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خلُقًا» [الترمذي]، حتى إن المتقرِّب بحُسن الخلُق لَيحظى بمحبَّة رسول الله ﷺ ومجاورته في أعلى الجنة! «إن أحبَّكم إليَّ، وأقربَكم مني مجلسًا في الآخرة: أحاسنكم أخلاقًا» [أحمد، والترمذي] وقد كان من دعاء نبيِّنا - صاحب الخلُق العظيم ﷺ -: «اللّهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلّا أنت، واصرف عني سيِّئها، لا يصرف سيِّئها إلا أنت» [مسلم].

---

(١) كما عند الترمذيِّ، وحسَّنه.

هذا، وإنَّ ما يعنينا - في مقامنا هذا - ليس التعريف بصنوف الأخلاق، والاستدلال لها، إنما ذلك الجانب العملي الذي يحرص المتقرِّب على ملازمته، ويجاهد نفسَه في تمثُّله؛ ليكون ذلك له مَدْرَجًا في سلوكه إلى ربِّه.

وهاك - أخي المتقرِّب - طائفةً من تلك الأخلاق، وطريقًا عمليًّا لتطبيقها[(١)].

- خلُق "الحياء"؛ وطريقه العمليُّ يكون:
  - باستحضار الإخلاص عند أداء الفرائض، واجتناب المناهي.
  - بتحرِّي الحلال في الكسب والإنفاق.
  - بترك الإنفاق في غير ضرورة، أو حاجة.
  - بتجنُّب حصول خلوة بامرأة، ولو كانت عجوزًا !
  - بِطُول الصمت، والنطق بخير، والتعفُّف عن قول السوء.
  - بتعوُّد غضِّ البصر.
  - بالامتناع عن إيقاع ضرر بالآخرين.
  - بالتفقُّه في مسائل الدِّين، وعدم التحرُّج من تعلُّم ما قد يُتحرَّج من تعلُّمه، وعدم الامتناع عن التعلُّم حتى ممن هو دونك في القَدْرِ الدنيوي .
- خلُق الصدق؛ وطريقه العمليُّ يكون:
  - بتجديد استحضار نية التقرُّب عند كلِّ عبادة تقوم بها.
  - بتحرِّي الصدق في كلِّ قول تنطق به، أو حتى بقولٍ تقوله في نفسك !

---

(١) إن شئت مزيد بيانٍ مع استدلال فانظر كتابي: «خُلق المسلم».

- بتحرِّي الصدق في أداء عملك المكلَّف به [الوظيفة، التعليم، الإعلام...]، وفي تجارتك: بيعك وشرائك، وسائر معاملاتك المالية.
- بالوفاء بالعهود والمواثيق.

وقِسْ على ذلك؛ فإنَّ أمثلة الصدق لا تنحصر، وصدق رسول الله ﷺ: «وما يزال الرجل يصدق، ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقًا» [متفق عليه].

- خلُق "الأمانة"؛ وطريقه العمليُّ يكون:
- بالأمانة في تأدية حقِّ الله تعالى؛ بالإخلاص في توحيده، وأداء ما افترضه على الوجه المشروع، دون إفراط ولا تفريط.
- بإسناد الأمر إلى أهله (عند التكليف بمهمَّة)؛ بدءًا بالقادة، وأهل العلم، وانتهاءً بمن له أدنى مسؤولية.
- بالأمانة في المعاملات المالية؛ سواء صَغُرَ شأنُها، أو كان خطر الإخلال بها جسيمًا.
- بالأمانة في حفظ الأعراض؛ قولًا، وفعلًا.
- بالأمانة في حفظ النفس عن كلِّ ما يضرُّها، أو يُشِينُها.
- بالأمانة العلمية في نسبة الأقوال والمعارف إلى قائليها، وعدم تغيير شيء فيها، بما يحرِّف معناها.
- بالأمانة في الشهادة على وجهها؛ تحمُّلًا وأداءً.
- بالأمانة في تحرِّي حُسن القضاء؛ بالتسوية التامَّة بين المتقاضيَيْن، وبالاجتهاد في إصدار الحكم وَفْقَ العدل.
- بالالتزام في أداء الودائع، كائنًا ما كانت؛ أموالًا وغيرها.

- بالتزام حفظ السِّرِّ، وبخاصة الأسرار التي يترتب على كشفها ضُرٌّ بصاحبها.
- بالتحوُّط في حفظ السمع والبصر والفؤاد، وسائر الحواسِّ عما لا يَحِلُّ.

وهكذا، تتعدَّد مجالات الأمانة، وتتسع دائرتها لتشمل أمور الدين والدنيا؛ فلا يصلح شيء من ذلك إلا بحُسن الأمانة.

أخي المتقرِّب السالك، أقتصر على تفصيل تلك الأخلاق الجامعة الثلاثة، ولك أن تقيسَ عليها أُمَّاتِ أخلاقٍ؛ ومنها: العدل، والصبر، والحِلم، والشجاعة، والكرم، والرحمة، والرِّفق، والتواضع، والوفاء...

وضابط ذلك كلِّه أن يكون المتقرِّب بحُسن خلُقه مخلصًا في قصده، معتدلًا في تخلُّقه، متوسِّطًا في تأديته بين طرفين، فلا يبالغ فيه حتى يُخرجه عن مساره، ولا يُنقص منه حتى يُضْعِفَه أو يُفْقِدَه! فالشجاعة - مثلًا - بين طرفي الجبن والتهوُّر، والتواضع بين الذِّلة والكِبْر، والجُود بين الحرص والتبذير، وقِسْ - بحصافتك - على سائر الأخلاق.

ولعلَّ من المناسب - في ختام هذا الفصل - إرشاد العباد المتقرِّبين إلى منهاج عامٍّ في كيفية السير والسلوك إلى الله؛ منهاج مستنبط من حديث رسول الله ﷺ الجامع: «إنَّ الدِّين يُسر، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه؛ فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والرَّوحة، وشيءٍ من الدُّلجة» [متفق عليه]؛ فإذا جدَّ المتقرِّب سيره فليكن منهاجه منضبطًا بالآتي:

- أنَّ الشريعة ميسَّرة تيسيرًا شاملًا في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

- وأنَّ الأفعال المأمور بها، إنما يؤتى بها على وجه التسديد والمقاربة، إنْ لم يدرك سدادَها من كلِّ وجه، لا على وجه التشديد والتنطُّع في الإتمام، وأن التُّروك المنهي عنها إنما تُترك ألبتة لا على وجه التردُّد في تركها. قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغَابُن: ١٦]، وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء فأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا» [متفق عليه].
- استحضار مُستدام للبشارة الموعود بها ثوابًا ومضاعفة؛ فالمتقرِّب أبعد ما يكون عن اليأس، حتى لو قصَّر أو عصى، لا بل قد يكون عَوْدُه بعد تقصيره، وإنابته بعد معصيته بنفس منكسرة متذلِّلة خاضعة سبيلًا عظيمًا في تقرُّبه، وأجدى له من أن يكون مجتهدًا طائعًا قد تشوَّف بما عمل وأُعجب بحُسن سيره، وظنَّ أنه قد بلغ غايته، وحقَّق مأموله ففتر سيره، وانحطت همَّته!
- تحيُّن السالك في سفره الأُخرويِّ سلوكَ القيام بصالح أعماله في أوقات النشاط والفراغ عن المشاغل؛ أول نهاره وآخره، وأول ليله وآخره؛ متشبِّهًا بالمسافر الدنيوي المتحيِّن لهذه الأوقات لقطع المسافات وقت راحته وراحة راحلته!

بهذا الإرشاد النبويِّ يبلغ المتقرِّب قصدَه، كما في قوله ﷺ: «والقصدَ القصدَ تبلغوا» [البخاري].

وأختم هذا الفصل بأن العابد المتقرِّب لن يصل إلى مبتغاه إلا إذا اتخذ ميزانين لعمله؛ الأول لأعماله الباطنة، عَنَيْتُ: الإخلاصَ «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها، أو

امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» [متفق عليه].

والميزان الآخر لأعماله الظاهرة، وهو: المتابعة للرسول ﷺ. فإذا فَقَدَ الميزانين، أو أحدَهما لم يكن لتقرُّبه معنًى ولا فائدة، وكان عمله مردودًا عليه؛ كحال بعضهم؛ لا همَّ له إلا كثرة الأَتْباع، وشهرة الطريق، ولا سيرَ له إلا بمبتدعات الأمور! كأنه لم يصل مسمعَه حديثُ النبيِّ ﷺ: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ» [متفق عليه].

فحذارِ - أيها المتقرِّب - من سير هؤلاء أو مقاربته، وإنْ كَثُرَ الأَتْباع، واشتهر الطريق؛ فلا طريقَ إلا لمخلِص متَّبع، لا لمُراءٍ مبتدع.



# الفَصْلُ الثَّالِثُ

## معارج التقرُّب، وبعض كرامات أهله



# تمهيد

قد علمتَ أن العبادة هي الطريق الأوحد للتقرُّب، وأنها لا تُقرِّب إلا بإخلاص العابد وحُسن اتباعه، لكنَّ حُسْنَ الاتباع هذا لا يتأتَّى بجِدِّ العابد واجتهاده وحسْب، إنما يلزم المتقرِّبَ ليَحْسُنَ اتباعُه أن يصحِّح مسارَ همَّتِه ابتداءً وسلوكًا، فلا تكون همَّته متصلةً - دومًا - إلا بطلب رضى الله ومحبَّته، هكذا إذا انطلق، وهكذا إذا سلك، وهكذا إذا دلَّ الخلقَ ونصحهم. ثم إذا صحَّح همَّة قصدِه في أحوال تقرُّبه كلِّها سار على علم صافي المورد لا ينهل إلا من مَعِينِ الكتاب، ومَشرب السنَّة، فلا تتجاذبه - بصفاء علمه - أهواءُ البدع في الاعتقاد، ولا مزالقُ التحريف في العبادات، فإنْ قلَّ عملُه - إذ ذاك - أو كَثُرَ تُقُبِّلَ منه، وكان سبيل تقرُّبه مرضيًّا عند ربِّه.

نعم، بمعرفة الطريق (العبادة)، وإخلاص النية في التقرُّب بها، وصفاء العلم في حُسن اتباعها، وعلوِّ همَّة في أدائها، يترقَّى المتقرِّبون، ويتفاضلون في معارجهم.

إذا تقرَّر هذا الفهم للعبادة فإننا نلج هذا الفصلَ - باذلين وُسعنا - في ترتيب معارج التقرُّب[1]، وفي ذكر بعض عاجل بشرى المتقرِّبين؛ من كرامات صحَّ وقوعها لأهلها، وثبتت لهم.

ولنشرع بالمقصود بعون الله الملك المعبود.

---

(١) قد تخيَّرت لفظ (معارج) لاعتبارات؛ منها: كونه جامعًا لما يندرج فيه من مرتبة، ومنزلة، ومقام، ولكونه مفيدًا لترقِّي المتقرِّب من حال إلى أعلى منها، ثم لكونه مُسْبِغًا صفةَ التقدير للمتقرِّبين جميعهم، كذلك لكونه تشبُّهًا بصفة عروج الملائكة ومقدَّمِهم الرُّوح - جبريل عليه السلام - إلى ربِّهم: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].



## أولاً: معارج التقرُّب

يتبوَّأ المتقرِّب في سلوكه إلى ربِّه معارجَ يعرج فيها؛ من مرتبة إلى منزلة إلى مقام تلو مقام، لكنَّ مدار هذا الترقِّي كلِّه قائمٌ على الحبِّ!

نعم، فلا سالك، ولا واصل إلا المحب، فإذا علم العبد: عظيمَ مقامِ ربِّه، وعظيم فضله عليه ابتداءً، لا لاستحقاقٍ لديه، وعَلِمَ عظيمَ حِلْمِهِ - سبحانه - عليه مع عظيم قدرته عليه، وعظيم تلطُّفه به مع تدافع الصِّعاب إليه، وعايَنَ عظيمَ نعمته عليه مع عظيم احتياجه وفاقَتِه إليه، وعظيمَ غنى مولاه عنه مع عظيم افتقاره إليه... إذا تفكَّر في ذلك جميعه مَلَكَ حُبُّ مولاه قلبَه، فأيقن أنْ لا سبيلَ إلى ربِّه إلا بخالص المحبَّة، فبادر بالتوبة إليه، فنزل - إذ ذاك - أول منازل التقرُّب: محبًّا لرسل مَن أحبَّ، محبًّا شرعَه، مواليًا كلَّ مَن أحبَّه، معاديًا كلَّ مَن حادَّه، حتى إذا اجتهد فسلك في حبِّه كلَّ مسلك استطاعه أحبَّه ربُّه، فمنَّ عليه بأنْ جعله متنبِّهًا - دومًا - صافي السريرة، سليم القلب؛ فلا تستسيغ روحُه إلا ما يُرضي ربَّه، ولا تشتهي نفسه إلا محابَّ مولاه؛ سمعُه مسخَّر للخير، وبصرُه متوجِّه إلى الخير، وعمل يده وسعي رِجْلِهِ ليسا إلا في سبيل مرضاة ربِّه.

تبعًا لهذا المفهوم للتقرُّب بالمحبَّة قد يُفهم حديثُ رسولِ الله ﷺ، فيما يرويه عن ربِّه - سبحانه -: «مَن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أَحَبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه؛ فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه

الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعلُه تردُّدي عن نفس المؤمن؛ يكره الموتَ، وأنا أكره مَساءتَه» [البخاري].

هذا الحديث - كما وصفه ابن تيميةَ رحمه الله - هو: أشرف حديث في ذِكر الأولياء[1]، وإن مداره - كما ترى - قائم على الحبِّ؛ فالحبُّ في الله مرتبة، وحبُّ العبد لله منزلة، وحبُّ الله للعبد مقام، فكأن تلك المعارج جواهرُ في عِقد ثمين لا تنتظم حبَّاتُه، إلا إذا استُكملت دائرة الحبِّ فيه! فلتتصوَّر - وفَّقك الله - تلك الدائرةَ كأنَّ محيطها وسياجها الحبُّ في الله (الموالاة لأولياء الله، والبراء من أعدائه)؛ وأن يكون رباط التحابِّ في الله هذا مستحكمًا في قلب المتقرِّب باعتباره أصلًا للتقرُّب؛ لا ينفع قيامٌ بفرائضَ ولا استتمامٌ لنوافلَ إلا به! فهو شأن متعلق بإيمان المرء؛ فإذا أبغض مؤمنًا لإيمانه، فهل يتقرَّب إلى ربِّه وقد عادى وليَّه وإذا أحبَّ كافرًا لكفره، فهل يتقرَّب إلى ربِّه بموالاة عدوِّه؟!

تلك مرتبة الحبِّ سياج الدائرة ومحيطها.

أما قُطر الدائرة فيكون بشروع المتقرِّب بالفرائض، وإتمامها، ومن ثَمَّ شروعه بالنوافل والإكثار منها؛ فكلَّما اجتهد في ذلك ملأ قُطرًا آخر في دائرة تقرُّبه محقِّقًا منزلة حبِّ العبد لربِّه، ثم لا يزال مجتهدًا في ازدياد حتى يرتقيَ إلى مقام حبِّ الله له؛ فإذا تقرَّب - عندها - بفريضة نال أجرها مضاعفًا، وإذا ازدلف بنافلة أُوتي ما لم يكن يحتسب من الدرجات، وتأتيه البشرى بعاجل الإكرام، فيزكية ربُّه فيرزقه سَمْعًا

(١) تقدَّم ذكر ذلك، ونسبته إلى مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٩).

حلالًا يستسيغه، وإبصارًا حلالًا يستلذُّه، وعملًا صالحًا مصلحًا تَقَرُّ به عينه، فلا يصنع بعدها إلا خيرًا، ولا يسعى إلا إلى خير، ثم يترقى في معراج كرامته حتى يصير مُجاب الدعوة ما أحياه ربُّه، حتى إذا دَنَتْ منيَّته صار متحقِّقًا بمحبة ربِّه له؛ فلولا أن الله كتب الموت على سائر الأنفس لم يُجْر عليه ما يكرهه، ولم يُمِتْه !!

إذا تقرَّر عندك هذا الفهمَ لحديث الأولياء أمكنك - بيُسْرٍ - معرفة ترتيب معارج التقرُّب؛ وكيف أنَّ السالكين إلى ربِّهم ينطلقون من **أصل ملازم لهم، ثم يعتلون مدرجًا يرافقهم، ومن ثَمَّ يترقَّون إلى منزلة، ومن بعدها يتبوَّؤن مقامًا يليه مقام**؛ مستصحبين في معارج تقرُّبهم - جميعِها - روحَ الإخلاص في عبادتهم، وأصلَ المحبَّة فيها، متحرِّين حُسْنَ الاتباع، يرافقهم جناحا الخوف والرجاء، يؤدُّون عباداتهم بتمام التذلُّل، مستكملين لها بكمال التأدُّب .

**هذه بإجمالٍ تلك المعارج، وهاك تفصيلَها :**

**أما الأصل المُلازِم** فالإيمان؛ ويكون بالتصديق الجازم بأركانه الستَّة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخِر، وبالقَدَرِ خيرِه وشرِّه. وإنك لَتلحظ أن الأركان الخمسة من بعد الإيمان بالله تعالى، إنما مردُّها وحقيقتها أنها جميعًا إيمان بجلال الله وعظمته في تدبيره أَمْرِ خلقه؛ فالملائكة هم حاملو رسالات الله وأوامره إلى خلقه، فكلٌّ منهم مختصٌّ موكل برسالة (هي من أمر الله): رسالة الوحي (جبريل عليه السلام)، رسالة القَطْر - المطر - (مِيكال عليه السلام)، رسالة النفخ في الصُّور (إسرافيل عليه السلام)، رسالة قبض الأرواح (مَلَكُ الموت عليه السلام)، وملائكة كَتْبِ الأعمال وحفظها، وملائكة حفظة للعباد بأمر الله،

وملائكة يتعاقبون بالليل والنهار في العباد يرفعون أعمالهم، وملائكة سيَّاحون يتبعون أهل الذكر في مجالسهم، وملائكة موكلون بفتنة القبر، وملائكة خزنة للجنة (في مقدَّمهم رضوان عليه السلام)، وملائكة خزنة للنار (في مقدَّمهم مالك عليه السلام)، وملائكة للرياح، والسحاب... فما من حركة في الأكوان إلا هي ناشئة عن تدبير الله تعالى بأمره، بإيكال ملائكة بتنفيذها، فإيمان بهم إنما هو إيمان بأمر الله وإنقاذه. وقل مثل ذلك في سائر الأركان متأمِّلًا متدبِّرًا.

**وعليه**، فإن الإيمان بالله تعالى يُلزم المؤمنَ بإتمام الإيمان بسائر الأركان؛ وإن أيَّ نقص منها إنما هو نقضٌ لجميعها .

هذا التصديق الباطن - الذي محلُّه القلب - لا بُدَّ له من تصديق ظاهر، ولا يكون ذلك إلا بالتلازم مع العمل الصالح ظاهرًا؛ قولًا وفعلًا؛ لذا، فإنك تجد آيات القرآن في مواضعَ عديدة قرنت الإيمان - اعتقادًا - بالعمل الصالح؛ تارة بالتعبير بالعمل، كما في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ٣٠]، وتارة بالتعبير بالاستقامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فُصّلت: ٣٠]، أو بالتعبير بالسعي: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء: ١٩].

قد قدَّمت بذكر ذلك كلِّه لأَدُلَّ المتقرِّب على أن الاجتهاد في العمل الصالح يثبِّت إيمانه، ويزيدُه، فلا بدَّ - في تقرُّبه - من ملازمة هذا الأصل ابتداءً وانتهاءً، وأنه السبيل الوحيد لسلوكه وترقِّيه، وأنه لن يعتليَ مدرجًا، ولن يحوز مرتبة، ولن ينزل منزلًا، ولن يتبوَّأ مقامًا إن لم يَحُزْ هذا الأصل، ويلازمه.

**وأما المدرج** الذي يعتليه كلُّ متقرِّب، ويرافقه في تمام رحلة تقرُّبه فالتوبة؛ فإذا عرف العبد نفسه، وأدرك مزيد حاجته إلى مغفرة ربِّه، أراد - إذ ذاك - الإقبال على ربِّه، فدخل في سلك المتقرِّبين؛ فإنْ كان ذنبُه غفلةً تيقَّظ وانتبه، فاستدرك تقصيره، وسدَّ خَلَلَه، وإن كان مُباشِرًا لذنب مقارفًا لمعصية بادر بالندم على ما فرَّط في جَنْبِ ربِّه، متذلِّلًا خاضعًا، فكان ذلك أجمعَ طريقٍ لصفاء قلبه ونقاء سريرته، فإذا به مفتوح له باب القُرب، وقد كان آنفًا غافلًا مذنبًا مُبعدًا !

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّور: ٣١]، فالحَظْ قوله - سبحانه - ﴿جَمِيعًا﴾ لتعلم أن ما من مؤمن يخلو من ذنب أو من هَمٍّ بذنب، أو من اشتهاء ذنب، وأن الله - سبحانه - ما أمر المؤمنين بالتوبة إلا ليقبلها منهم، وليفتح لهم بها باب القُربة إليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشّورىٰ: ٢٥]، إذًا؛ فكلُّ مؤمن مدعوٌّ إلى التقرُّب من ربِّه إلى الله طالما أنه مدعوٌّ إلى التوبة إليه.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التّحْريم: ٨]. نصَّت الآية على النُّصْح في التوبة لدلالة النُّصْحِ فيها على الصدق؛ فيعمِّم المؤمن - صادقًا - رجوعه عن عامَّة ذنبه، فضلًا عن خاصِّه، ويعقد العزم على تركه، ويتحسَّر على فعله، كما ينوي أن لا يعود إليه ما بقي من عمره، فإنْ تعلَّق ذنبُه بحقٍّ من حقوق العباد بادر إلى إرجاع الحقِّ إلى أهله - إنْ كان ذلك ممكنًا -، ويُجمع نيَّته على أن توبته إنما هي بداعي عظيم محبة الله تعالى، وعظيم الخوف منه، وعظيم الإشفاق من عذابه، مع عظيم التشوُّف إلى ثوابه سبحانه.

ولنذكر - إجمالًا - بعض فوائد التوبة غير كونها سببًا للمغفرة؛ وكلُّ ذلك سبل مقرِّبة:

- التوبة تحقِّق صفاء النفس بالتخلُّص من مكدِّرات الذنب؛ من لوم النفس، وتأنيب الضمير، وظلمة القلب، والشعور بالبعد عن سويِّ الصراط.
- التوبة تثبِّت الإيمان، وتزيده، وتمتِّن الصلة بقابل التَّوب سبحانه.
- التوبة سبب لتحفيز العبد على استدامة الاستقامة؛ فالمذنب لم يتب إلا لعلمه بتقصيره، وأنَّ عليه - إذ ذاك - أن يجتهد في تدارك ما فاته في بقية عمره - ولو متأخرًا -، بعد أن ضيَّع ذلك في أوله، فيَشُحَّ في أوقاته؛ فلا يقضيها - غالبًا - إلا في طاعة، منوِّعًا فيها بين صنوف الخيرات؛ مُقبلًا على وقته لا يصرفه في تذكُّر ماضٍ بات أحلامًا لا تدرك، ولا يضيِّعه في مُقْبِلٍ من حياة متمنِّيًا فيه أمانيَ، بل يكون ابن وقته - كما قيل - يحقِّق فيه ما استطاع.
- التوبة أعظم سبب للخضوع والتسليم والتذلُّل؛ ما يوصل التائبَ إلى مزيد التأدُّب مع الله تعالى، وهذا التأدُّب هو - في حقيقته - باب عظيم للتقرُّب.
- التوبة سبب لتبديل السيئات حسنات؛ فإن السيئة بعد أن تُمْحَى كأنها لم تكن، يصرف العبد بندمه جُلَّ عمله في الإكثار من الحسنات؛ فكلُّ وقتٍ صرفه في معصية يصرف مثلَه أو يزيد في حسنة، فإذا ضاعف الله - بإخلاص العبد في توبته - حسناتِه، وجعل - سبحانه - ندم عبده على سيئته حسنة، صَارت جميع أعماله بذلك حسنات!

- التوبة مسلك إلى التزام الطاعة؛ وإلَّا فما الذي يحول بين المذنب وبين الطاعة إلا ذنبه، فإذا كسرت التوبةُ قيدَ الذنب فُكَّ أَسْرُ المذنب، فانطلق في مضمار سباق التقرُّب، لا يتعثر بذنب اقترفه .

وجملة القول في شأن التوبة أنها هي الحسنة الأصل التي يتفرع عنها حسنات الأعمال، وتفتح الباب لقبول الطاعات؛ فتكون بذلك المسلك المتفرِّد لطلب القُرْب، ترافق المتقرِّبَ منذ بدء سلوكه إلى منتهاه، ولله دَرُّ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ القائل: (التوبة آخر مقام السالكين، وهي بداية منازلهم)[1] .

ولنختم - مبحثنا هذا - بذكر بعض عظيم جزاء التوبة، وثِقَلِها في ميزان أهل التقرُّب؛ ومن ذلك:

- أن يدخل العبد في سلك المحبوبين عند الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢] والْحَظْ التعبيرَ بصيغة المبالغة؛ للدلالة على تكرُّر التوبة ودوامها؛ فالعبد - إذًا - ليس منزَّهًا إذا سلك سبيل التقرُّب عن مقارفة معصية، أو عن مُساورة غفلة، أو عن تقصير في طاعة، لكنه في ذلك جميعه محبوب عند ربِّه إذا جدَّد العهد بتوبة.

وليعلم المتقرِّبُ أنَّ تكرار الذنب - بغلبة النفس، وتزيين الشيطان، مع كره للذنب - إذا تبعه استغفار مع صدق في التوبة أنَّ ذلك لا يَضُرُّ، أما التكرار للتشهِّي والتلذُّذ استخفافًا بخطر الذنب، واعتمادًا على قبول التوبة فلا تُعتبر التوبة عنه ندمًا، ولا تركه - مؤقتًا - إقلاعًا، إنما قد يدخل ذلك في التلاعب في مفهوم الاستغفار ومقوِّمات التوبة، وهذا

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤١٦).

خطر جسيم ومنزلق خطير في مسلك التقرُّب؛ حيث يظن السالك فيه أنه بصورة توبته الظاهرة تلك صار مؤهَّلًا لازدياد القرب، ولو كرَّر ذنبه مرارًا، فهو محبوب مغفور له!

- ومن عظيم جزاء التوبة تكفير ما مضى (مَحْوُه)، لبداية جديدة كلما تاب! فتكون التوبة بذلك سببًا مستديمًا لاستقامة المتقرِّب، بل لترقِّيه في تقرُّبه.
- ومن جزائها المعنويِّ أيضًا أنها تعالج لدى المتقرِّب مرضَ طول الأمل المصاحب دومًا للإنسان؛ فيغريه بارتكاب الذنب، طالما أن العمر فيه سعة؛ فإذا بادر إلى التوبة - وكان دَيْدَنُه هذا - كان متيقِّظًا دومًا أن العمر قد ينتهي في لحظة كما انتهت أعمار كثيرة في لحظة ارتكابه هو لذنبه، فما يمنعه أن يكون في جملة هؤلاء؟! فيترك ذنبه طالبًا الختام بالحسنى.

**وأما المنزلة** التي يقتضيها أصل الإيمان؛ فهي منزلة الولاء والبراء؛ فإذا استمكن الإيمان في قلب المتقرِّب، أيقن أن أهل الإيمان هم أولياء الله تعالى وأحباؤه فوقر في قلبه اعتقادُ وجوبِ موالاتهم، وظهرت في تصرُّفاته آثار محبتهم. كما أيقن أن أهل الكفر هم أعداء الله تعالى والمُبغَضون عنده، فوقر في قلبه اعتقادُ وجوبِ عداوتهم، وظهرت في تصرفاته آثار بُغضهم.

فالمؤمن - الحقُّ - يوالي كلَّ مَن والى الله تعالى (أعيانًا، هيئاتٍ، جماعاتٍ، دولًا)، ويتبرأ من كلِّ مَن تبرأ الله منه (أعيانًا، هيئاتٍ، جماعاتٍ، دولًا)، كلُّ ذلك هو في أصل الإيمان ولازِمِه، وفي صُلب الاعتقاد ومقتضاه.

ويحسن - في مقامنا هذا - ذِكْرُ نوع تفصيل في أنواع موالاةٍ تتنافى مع تمام التبرؤ من أعداء الدين، وهي قد تتخذ أشكالًا لا يفطن إليها بعض المتقرِّبين، أذكر منها:

- الولاء العاطفي؛ بفَرْطِ الإعجاب بما عليه الأعداء من تقدُّم حضاريٍّ وثقافيٍّ، وأن ذلك مرتبط بفصلهم الدين عن الحياة؛ بمسمَّيات ولبوسات فكريَّة من: علمانية، وحداثة، وتنوُّر... إلخ؛ فيلحق أحدهم بركب الأعداء، لكنْ في لَبوس التحضُّر والتمدُّن!
- المداهنة في صورة المداراة أو المجاملة، مخافة أن يُوسمَ أحدُهم بتعصُّب أو تشدُّد؛ فيغضُّ طرفًا عن تصرُّفاتهم أو مقولاتهم، وإنْ كانت معارضة لمسلَّمات الدِّين! أو يوافقهم في نشر ثقافاتهم غير المتوافقة مع ثقافة الإسلام، وذلك كلُّه بصورة الانفتاح والحوار!
- ومن صور الموالاة لهم الثناءُ عليهم، مطلقًا وإجمالًا، والانبهار بجميع ما هم عليه، ولو اشتمل انحلالًا وتفلُّتًا؛ بحجَّة إقرار منحى الحرية الشخصية، وأنهم لم يتوصَّلوا إلى حضارتهم الماديَّة تلك إلا بفكِّ قيود الضوابط المجتمعيَّة، وإلا لما ظهر أثر لتلك الإبداعات الثقافية، بل الكشوف العلمية!
- ومن ذلك أيضًا الاستظهار بهم؛ باتخاذهم أعوانًا ومستشارين في أمور مهمة يمكن الاستغناء عن مشورتهم بها.

**وبالإجمال**، فإن مَن شاء تقرُّبًا إلى ربِّه فلا بدَّ له من أن يكون متيقِّظًا متحسِّسًا من أيِّ صورة موالاةٍ لأعداء الدين؛ ليكون تبرؤه منهم ومما هم عليه تامًّا، وأن يبحث بكليَّته عن أيِّ مظهر ولاء لأهل الدِّين في: محبتهم، ومظاهرتهم، والاستظهار بهم، والثناء عليهم، والسعي لنفعهم ومنع الضُّرِّ عنهم ما استطاع، ومواساتهم، وخفض الجناح لهم.

**استثناء: قال تعالى:** ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: (إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتُظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتُضمروا لهم العداوة، ولا تُجاروهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تُعينوهم على مسلم بفعل).

**تنبيه**: البراء من الكافرين لا يعني - بحالٍ - ظلمَهم أو التعدِّي عليهم، أو أذيَّتَهم، إلا إذا كانوا كفَّارًا مُحارِبين ابتدؤوا المسلمين بالتعدِّي. والقاعدة في معاملة الكفار غير المحاربين: دعوتهم، ونُصحهم، وتوجيههم، ومجادلتهم بالحسنى، وبخاصة منهم من يُظن فيه مَيْلٌ إلى مسالمة المسلمين، أو ميل إلى الإسلام نفسه، فيُتألَّف قلبُ مثلِه حتى ولو بالمعونة عند حاجته!

**وأما المقام الذي يليه مقام،** فقرب الفرائض، يليه قرب النوافل؛ وسبيلهما الأوحد المباشرة بالعبادة العملية؛ فرضًا ونفلًا.

**وعليه،** فالمقام الأول: **مقام قرب الفرائض،** وشاهدُه من "حديث الأولياء": «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ مما افترضتُه عليه».

هذا المقام هو المقدَّم في عمل المتقرِّب؛ فيستجمع القيامَ بما افترضه الله عليه؛ معتقدًا - عند القيام به - أنه هو السبيل الأقرب إلى الدخول في سلك المحبِّين طالبي المحبَّة.

هذا الاستجماع للفرائض لا يقتصر - كما يُظَنُّ - على القيام بأركان

الإسلام الخمسة، وهي - كما لا يخفى -: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ؛ فليست تلك الأركان هي الفرائض كلَّها، بل هي مهمَّات تلك الفرائض، وأركان الدين التي يُبنى عليه، وهي المتعيِّنة على كل مكلَّف بأدائها. لكنْ ثمة البناء نفسُه؛ حيث لا يتحقَّق للمتقرِّب مقامُ قُرْبِ الفرائض إلا باستجماعها.

ذلك البناء مشتمل - مع المحافظة على الأركان الخمسة، وأدائها - على القيام بجملة الواجبات المشروعة، والانتهاء عن كافة المحرَّمات، وهذا مستلزم أن يتعلَّم المتقرِّب ويتفقَّه بما أوجبه الله على المسلم من واجبات، وأن يتبيَّن ما حرَّمه الله عليه ليجتنبه؛ فإذا تعلَّم فقام بالواجبات، وتفقَّه فانتهى عن المحرَّمات وداوم - مجتهدًا - على ذلك، استكمل - عندئذٍ - مقام قرب الفرائض، فصار مُحِبًّا طالبًا أن يكون مُحَبًّا.

ولنذكر طائفة من تلك المفروضات الواجبات من بعد الأركان؛ فمنها:

- بِرُّ الوالدين وصلة الأرحام.
- معاملة الخَلق بحُسن الخلُق.
- أداء حقوق العباد الثابتة في الذِّمَّة.
- تحرِّي العدل في صنوف المبادلات المالية، والمعاملات، دون بخس لحقٍّ، أو ظلم في أداء، أو غُشٍّ في سلعة، أو تطفيف في كيل، أو نقص في وزن، أو رجوع في عقدٍ مُبرم، أو وقوع في تعامل ربويٍّ، وغيرها، مما يلزم التفقُّه فيه لتجنُّبه، أو العمد إلى مسألة أهل العلم عنه.
- ومن الواجبات الخلُقية: نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وعون الضعيف، والصدق في النصيحة، ومحبة الخير والنفع للناس،

ودفع الضُّرِّ عنهم ما أمكن، وحُسن الجوار، وحسن القيام بالحقوق الزوجية، وإحسان الظنِّ بالمسلمين.

هذا، ويلزم القائمَ في مقام قرب الفرائض تركُ منهيات مَتَّفَقٍ على حرمتها؛ منها: مقاربة الزنا، وأكل الرِّبا، وشرب الخمر، وتعاطي المَيْسِر (المقامرة)، وغصب المال وأكله حرامًا، وإيقاع ظلم، وانتهاك عرض، وفحش قول من سباب أو لعن، ويلزمه ترك غيبة، ونميمة، وسخرية، وسوء ظنٍّ، ويلزمه مجاهدة نفسه من تكبُّر، وعُجب، ومحبة رياء، وسمعة، وغرور، وحرص على مال، أو منصب، وسائر ما يُفسد عليه كونَه في مقام تقرُّب إلى ربِّه.

نعم، ذلك جميعه مطلوب ممن يقيم في مقام قرب الفرائض، لا كما يُتَوَهَّمُ بأن القيام بالأركان الخمسة - على أهميته وأوَّليته - كافٍ لطلب المحبَّة في التقرُّب.

أما المقام الذي هو غاية سَبْقِ المتقرِّبين، فهو **مقام قرب النوافل**، أو إن شئت فسمِّه: مقام الإحسان، أو مقام المجاهدة، أو مقام الاصطبار، أو مقام التبتُّل، أو مقام النَّصَبِ، أو مقام السَّبْقِ بالخيرات، أو مقام المحبوبيَّة، أو مقام الإكرام، أو مقام التأييد، أو مقام التيقُّظ. نعم، لك أن تسمِّيَه بذلك جميعه؛ حيث إن المقيم فيه قد أدى النوافل وأكثر في أدائها، وأحسن في المبادرة إلى هذا المقام بعد إتمامه مقامَ قرب الفرائض، وجاهد نفسه في الإكثار من نوافل العبادات، واصطبر لعبادة ربِّه فسبق كثيرًا من العابدين، وحاول الانقطاع إلى العبادة في جميع أحواله، وأتعب جسده في عبادته، ونال - بتوفيق ربِّه - محبَّة منه، وأكرمه ربُّه بما وفَّقه إليه من استقامة، ثم صار مؤيَّدًا بصفاء نفس، وتيقُّظ مستديم على الطاعة ومحاذرة المخالفة.

ذاك المقام لا يناله كلُّ متقرِّب، إلا مَن نافس - مجتهدًا - في استجماع فعل الواجبات، وجزم في ترك المحرَّمات، وأكثر من فعل المستحبَّات، واجتهد في ترك المكروهات، بل إن بعض القائمين في هذا المقام قد يترك الاستكثار من فِعل المباحات زهدًا بها وتورُّعا عنها؛ مخافة أن يستجرَّهم هذا الاستكثار إلى فِعْلِ مكروه!!

وهاك - أخي المتقرِّب - تفصيلًا لأنواع قُربات، يشرع بها مَن أراد قربًا خاصًّا، ومحبوبيَّة مختصَّة من ربِّه:

**فمن خواصِّ النوافل العملية: أبوابُ الخير.**

قال النبيُّ ﷺ مرشدًا معاذَ بن جبل رضي الله عنه، كما في مرويِّ الترمذيِّ: «ألا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّةٌ، والصدقة تُطفئ الخطيئة، كما يُطفئ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا ﷺ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٦-١٧].

بذلك يتبيَّن أن الإكثار من صوم التطوُّع، ومن التصدُّق (نوافل الصدقات المالية)، ومن المواظبة على قيام الليل، هي أبواب عظمى في التقرُّب إلى الله.

وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه دَأْبُ الصالحين قبلكم، وقُربة إلى الله تعالى، ومَنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومَطردة للداء من الجسد [أبو داود، والترمذي، واللفظ له].

**ومن خواصِّ النوافل القولية.**

- تعلُّق القلب بكتاب الله تعالى، وترجمة ذلك عمليًّا يكون بكثرة التلاوة، والمواظبة عليها آناء الليل وأطراف النهار.

- كثرة الصلاة وبالغ التسليم على النبيِّ ﷺ، وبخاصَّة ليلة الجمعة ونهارها.
- كثرة التسبيح، والحمد، والتهليل (قول: لا إله إلا الله)، والتكبير. والتزيُّد في فروعها؛ فإذا قال: سبحان الله، زاد: وبحمده، سبحان الله العظيم، وإذا قال: الحمد لله، قال: ربِّ العالمين، وإذا قال: لا إله إلا الله، قال: وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، وإذا قال: الله أكبر، قال: كبيرًا، أو أتبعها بقوله: ولله الحمد، وهكذا يستزيد من فروع هذه الأصول ما شاء مما ثبتت مشروعيته.
- المحافظة على أذكار الإصباح والإمساء، وعلى الذكر المشروع المقيَّد بوقت؛ كأدبار الصلوات، وعند النوم، أو المقيَّد بحال: كالسفر، والخروج من المنزل والدخول إليه، ودخول المسجد والخروج منه، وهكذا، فكأن المتقرِّب في ذكر مستمر في جميع أحواله(١).
- التوسُّع في تعلُّم العلم النافع وتعليمه، فهذا يجتمع فيه ما لا يكون في غيره من خواصِّ التقرب؛ فهو - مع كونه من أخصِّ النوافل القولية - فإنه يجمع تقرُّبًا عمليًّا في طلبه والرحلة فيه، وتقرُّبًا قلبيًّا في الإخلاص في طلبه، وتقرُّبًا ماليًّا؛ فيبذل أهله في الرحلة له، وينفقون كرائم أموالهم في استجماع مراجعه، ويجود - الغني منهم ومن غيرهم - في الإنفاق على طلبته ومعلِّميه، كما ينفرد طلب العلم بتعدِّي نفعه حتى يَعُمَّ مجموعَ الأمَّة؛ فيحفظ لها دينها،

(١) انظر - إن شئت توسُّعًا واستدلالًا - كتابَيْنا: «منتقى الأذكار»، و«وِرد اليوم والليلة».

ويصحِّح لها عقيدتها، ويُصلح لها عباداتها، ويهذِّب نفوسها، ثم إن هذا العلم يقرِّب أهله حتى من بعد مماتهم؛ فلا ينقطع - بذلك - تقرُّبهم كلَّما انتفع بهذا العلم منتفع، وبخاصة إذا دعا لمعلِّمه متعلِّمٌ من بعده، فهل ثمة تقرُّب يوازي ذلك؟!

## أيها المتقرِّب، هاك أسباب المحبة وآثارها:

نختم مبحث معارج التقرُّب بذكر عشرة أسباب جالبة لمحبة الله تعالى، يسعى المتقرِّب إلى استجماعها ما أمكنه، وبعض آثار (ثمرات) محبة الله تعالى لعبده .**أما الأسباب**، فهي[1]:

١- قراءة القرآن بتدبُّر وتفهُّم لمعانيه، وما أُريدَ به؛ كتدبُّر كتاب السيِّد الذي يحفظه العبد ويطلب شرحه؛ ليتفهَّم مرادَ صاحبه منه.
٢- التقرُّب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنها مُوصِلة إلى درجة المحبوبيَّة بعد المحبَّة.
٣- دوام ذِكر الله تعالى على كلِّ حال؛ بالقلب، والمقال، والعمل، والحال، فنصيب المقرَّب من المحبة على قَدْرِ نَصِيبِه من الذِّكر.
٤- إيثار المتقرِّب (تقديمه وتفضيله) مَحَابَّ الله تعالى على محابِّه عند غَلَبَاتِ الهوى، والتسنُّم (الارتقاء) إلى محابِّه - سبحانه - وإنْ صَعُبَ عليه المرتقَى.
٥- مطالعة القلب لأسماء الله تعالى وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلُّبُه في رياض هذه المعرفة؛ فمن عرف الله بأسمائه وأفعاله أَحَبَّه لا محالة.

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٤٤٨ وما بعدها).

٦- مشاهدة بِرِّ الله وإحسانه، وآلائه، ونِعَمِه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلى محبته.

٧- انكسار القلب (خشوعه وسكونه، وتذلُّله وخضوعه) بكُلِّيَّتِه بين يدي الله تعالى.

٨- الخلوة بالله وقت النزول الإلهيِّ (عند الثلُث الأخير من الليل = وقت السَّحَر)، لمناجاته سبحانه، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب مع التأدُّب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

٩- مجالسة المُحِبِّين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايبَ الثمر، وألَّا يتكلَّم - أي: في مجلسهم - إلا إذا ترجَّحَتْ عنده مصلحةُ الكلام، وعلم أنَّ فيه مزيدًا لحاله ومنفعةً لغيره.

١٠- مباعدة كلِّ سبب يحول بين القلب وبين الله عزَّ وجلَّ.

قال ابن القيِّم رحمه الله: فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبُّون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كلِّه أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة.

**وأما الآثار**، وهي ما يجنيه العبد إذا أحبَّه الله سبحانه فلا حدَّ لها يَحُدُّها؛ فيكفيه ويزيد أنه تسنَّم مرتقًى لا مرتقًى بعده؛ فقد وُسِمَ بـ (حبيب الله)، وله أن ينال من ثمرات هذا الوسام الأشرف ما شاء الله له أن ينال؛ ومن ذلك - في الدنيا قبل الآخرة -:

- أنْ يكون محبوبًا مقبولًا عند أهل السماء (السماوات السبع)، وأهل الأرض!

«إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جبريلَ: إن الله يحبُّ فلانًا فأَحْبِبْه، فيحبُّه

جبريل، فينادي جبريلُ في أهل السماء: إن الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضعُ له القَبول في أهل الأرض» [متفق عليه].

**تنبيه**: قد يُفهم من هذا أن مطلق شخص محبوب عند الناس فهو محبوب عند الله، أو العكس، لكنَّ الفهم الصحيح هنا: أن محبة الناس للعبد إنما تكون علامة على محبة الله له إنْ كان هذا المحبوب ملتمسًا لرضا الله سبحانه بأداء فرائضه واجتناب محارمه.

ومن عظيم ثمراتِ بلوغ مقام المحبوبية:

- أنْ يوفَّق المحبوب، فلا يسمع إلا ما يحبُّه الله.
- ولا يرى إلا ما يحبُّه الله.
- ولا يعمل بيده إلا ما يرضي الله.
- ولا يقصد في سعيه إلا إلى ما يحبُّه الله.
- وأن يكون مُجاب الدعوة؛ له ولغيره.
- وأن يكون محفوظًا بحفظ الله.

«فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبْطِشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه» [البخاري].

وبالإجمال، فإن العبد المحبوبَ لله تعالى هو محبوب عند خلقه، موفَّق للطاعات، محفوظ من الفتن وغلبة الشهوات، موفَّق لنفع الخلق، موفَّق لحُسن الخلُق، موفَّق ميسَّر لحُسن الخاتمة، نسأل اللهَ حُسْنَها.



## ثانيًا: كرامات أهل التقرُّب

قد علمت أن التولية (القُرب من الله تعالى) لا تكون إلا للعابدين بدءًا بالمحبِّين وترقِّيًا إلى المحبوبين، وأن التولية لهؤلاء إنما تكون تبعًا لنسبة صلاح الوليِّ؛ وأن العبد المحبَّ كلَّما حقَّق صلاحًا ازداد قُربًا بأضعاف ما حقَّق !

بهذا المفهوم لعظم وسعة تقريب الله لعباده الصالحين يندرج باب الكرامة لهم ؛ فيختصُّهم ربُّهم بما شاء، ويفتح عليهم من أبواب رحمته : تثبيتًا لهم على الاستقامة، وتكريمًا لهم، وتأييدًا، وتبشيرًا لهم ولمن سلك مسلكهم بحسن الحال والمآل.

لكنَّ تلك الكرامة قد توسَّع فيها قوم، فادَّعَوْها لغير أهلها أصلًا، أو نسبوها إلى أهلها دونما دليل في ثبوتها لهم، أو أنهم زادوا على أصلها الثابت لأهلها، مغالاة في حقهم، أو تعصُّبًا لهم، وتجد آخرين قد تجرؤوا فصاغوا رواياتٍ مُختلَقَةً لصالحين كذبًا وافتراءً عليهم؛ تزيُّدًا في الترغيب باتباع طريقهم، أو مزايدة على طريق غيرهم !

لذا، وحتى لا تَزِلَّ قدم المتقرِّب في تلك المزالق كان لِزامًا عليه أن يتبيَّن : مفهوم الوليِّ لِيُنزله منزلته، فلا يبخسه منها شيئًا، ولا يتزيَّد له فيها، ثم يتفقَّه في ماهية الكرامة، كما يعرف ضوابطها، وأنواعها ويستجليَ الحكمة في إجرائها، ويتفقَّه في أحكامها، ومن ثَمَّ يتحرَّى تعلُّم الثابت الصحيح منها، حتى لا يكون جمعُه لها جَمْعَ حاطبٍ بليل،

فيستغرق في طلب أطرافها وما ندَّ من قصصها، فتتشوَّف نفسه - إذ ذاك - لتطلُّبها، وينحصر مبتغى تقرُّبه في حصول شيء منها له، حتى إذا لم يكن ذلك تراخت همَّته، وأُحبط عن مسعاه!

وعليه، فقد فصَّلت في هذا المبحث؛ حيث حوى سبعة مطالب كالآتي:

١- الولاية وأهلها.
٢- تعريف الكرامة.
٣- ضوابطها (شروط الحكم بأنها كرامة).
٤- نوعا الكرامة.
٥- بعض الحكمة في إجرائها.
٦- أحكام مختصة بها.
٧- نماذج من الكرامات الثابتات لأهلها.

### ١- الولاية وأهلها.

إن معنى الولاية لغةً متناسب تمام التناسب مع المعنى الشرعيِّ لها؛ فالوَلْيُ - بسكون اللام - هو القُرْبُ والدُّنُوُّ، والوَلِيُّ ضِدُّ العدوِّ[(١)]، والوليُّ اصطلاحًا، كما استنبط ابن كثير رحمه الله عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]؛ حيث قال: يخبر الله تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون؛ **فكلُّ مَن كان تقيًّا كان لله وليًّا**[(٢)]، فجعل رحمه الله هذا الضابطَ للولاية بالتلازم بين التقوى والولاية؛

---

(١) مختار الصِّحاح للرازي، باب الواو، مادة (و ل ي).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير [٢/ ٤٢٣].

فأهل الولاية هم خُلَّصُ المؤمنين المتقين[١]؛ فلا يخلو مؤمن تقيٌّ من ولاية، لكنهم يتفاوتون في القرب من الله تعالى، كلٌّ بحسب مزيد إيمانه، ونسبة تحقيق تقواه، واصطباره لعبادة ربِّه.

ويظهر بذلك أن ما يدَّعيه البعض من كون الولاية مختصَّة بطبقة عليا من المتقربين ادعاء يعوزه الدليل، وغرضه جعل هالة مصطنعة حول أشخاص بأعيانهم، وهو ما يترتب عليه أمور لا يقرُّها الشرع، من استمساك مُبالَغ فيه بهؤلاء، قد يصل إلى حدِّ المغالاة في تقديرهم، كما أنه قد يُحدث تثبيطًا لدى بعض المتقربين عن الاجتهاد في التقرُّب، اعتمادًا وتعلُّقًا بالانتساب إلى ذلك الوليِّ وحسب، كما قد يُحدث تفرُّقًا في صفوف الأتباع، كلٌّ يستمسك بمتبوعه ويهوِّن من شأن مخالفيه، كما هو - لبالغ الأسف - مشاهد في عصرنا !

**٢- تعريف الكرامة.**

أما تعريفها اللغوي فنضرب صفحًا عن ذكره لبداهة استظهار معنى التكريم والامتنان فيها.

أما تعريفها اصطلاحًا فإن المستقرئ لتعريفات أهل العلم للكرامة، يتبين له أنها تتمحور جميعها حول خرق العادة (حدوث أمر غير معتاد فيها لم يألف الناس حدوثه)، وذلك بقدرة الله وحده، إكرامًا لعبد صالح تولَّاه ربُّه لاجتهاده في تقرُّبه، فامتنَّ عليه.

ولنستعرض بعض تلك التعريفات:

❖ الكرامة : (أمر خارق للعادة، غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢ / ٤٧٥).

مقدمة أي: (لادعائها)، - يظهر أي: هذا الأمر الخارق للعادة - على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبيٍّ كلف بشريعته، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها ذلك العبد الصالح، أم لم يعلم)[1].

❖ الكرامة: (ظهور الأمر الخارق على أيديهم (أي: الأولياء) الذي لا صُنْعَ لهم فيه، ولم يكن بطريق التحدِّي، بل يُجريه اللهُ على أيديهم وإن لم يعلموا به، كقصة أصحاب الكهف وأصحاب الصخرة، وجريج الراهب)[2].

❖ الكرامة: (خَرْقُ اللهِ العادةَ لوليِّه، لحكمةٍ ومصلحة تعود عليه، أو على غيره)[3].

نكتفي بتلك التعريفات الثلاثة للكرامة اصطلاحًا، وإن ساغ لنا اختيار، فالمختار هو الأول منها، فقد جمع أفرادًا لم تجتمع في نظيرَيْه، وهي:

- كون كلِّ كرامة هي خرق للعادة.
- أن من شرط الحكم بكونها كرامة ألَّا تكون مقترنة بدعوى نبوة، وأنها لا تظهر باعتبارها علامة على نبوة.
- ظهور الصلاح عند مَن أُجريت على يده، بأن يكون الصلاح متمكِّنًا عنده، مستمرًّا في سيرته، مستقرًّا في أفعاله.
- تحرِّي الوليِّ لحُسن متابعة الشرع، والتزامه القيام بتكاليفه.

---

(١) لوامع الأنوار البهية، للسَّفاريني (٢ / ٣٩١).
(٢) ذكره العلَّامة حافظ الحكمي كما في كتاب «أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة» (مائتا سؤال وجواب في العقيدة الإسلامية)، ص ١٣٧.
(٣) فتح المنَّان للآلوسي، ص ٤١١.

- البعد التامُّ عن أي مخالفة لصحيح الاعتقاد، ومجانبة الوقوع في أدنى ابتداع فيه، ومع التزام صلاح العمل؛ بكونه ثابتًا موافقًا للمشروع، خاليًا من الابتداع.

**٣- ضوابطها (شروط الحكم بأنها كرامة)**

أَكْثَرَ الناسُ - قديمًا وحديثًا - مِن تَناقُل مرويَّاتِ الكرامات، ولم يُعِرْ كثير منهم اهتمامًا لضوابط الشرع في التفريق بين حقِّها وباطلها، صحيحها ومَنْحُولها، وسأذكر مهمات هذه الضوابط مما تَمَسُّ الحاجة إلى معرفته؛ ومن ذلك :

أ - أن تكون موافقة (في معناها، وأحداثها، وحكمة إجرائها) للشريعة، فلا تخالفها بحال، فأيُّ مخالفة لحكم شرعي فيها يسلخ عنها صفة الكرامة، ويُحِيلها إلى شأن آخر؛ وذلك درءًا للتناقض ما بين إكرام الله لعبده، وما شرعه الله لعبده !

**وعليه**، فما كان من أمرٍ مقرَّر شرعًا، تمت مخالفته في رواية قصة، أو نهي مقرَّر شرعًا، تم ارتكابه في رواية قصة، فإنه يُجزم - والحال هذه - بأن هذا المرويَّ ليس بكرامة.

**تنبيه** : إن أدنى إخلال في تطبيق هذا الضابط هو إخلال في حفظ أحكام الشريعة، وفتحُ بابٍ لا يُسَدُّ إلى انتهاك الحدود الشرعية، وتسويغ التلاعب بها باسم الكرامات، وأحوال أهل الصلاح، ولا يخفى ما في ذلك من إساءة للدين، وخطر في تحريف أحكامه، وإساءة إلى متصف بالصلاح، تُنسب إليه - زورا - هذه المخالفات.

ب - أن تتحقق في الكرامة معاني الإكرام (الحسِّي، أو المعنوي)

لمن أُجريت على يديه، فكثيرًا ما يُنسب إلى الكرامة ما ليس منها في شيء ! فلا تحوي - تصريحًا ولا تلميحًا - خرقًا للعادة، لكنْ لمغالاة مَن يرويها عن صالح، أو لاغترار مَن يدَّعيها لنفسه، فإنك تجد حدثًا معتادًا تحوَّل بفعل تلك المغالاة، أو ذلك الاغترار، تحوَّل - زورًا - إلى ادعاء كرامة !

والمنهج السويُّ في الحكم بكونها كرامة يكون بالتأمُّل الدقيق في حال صاحبها، ومُجريات أحداثها، وموافقتها للشريعة، مع كونها خارقة للعادة، ومحقِّقة للتكريم.

جـ - أن يكون صاحبها (مَن أجريت له) صاحب ولاية؛ مؤدِّيًا للفرائض، مكثرًا من النوافل، وقَّافًا عند حدود الله، مجتهدًا في الالتزام بالكتاب والسُّنَّة (اعتقادًا، وعبادة، وأخلاقًا)، بعيدًا - كلَّ البعد - عن اقتراف بدعة، فضلًا عن الدعوة إليها.

وفي بيان هذا الضابط يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : (إن كان من وقعت له خارقةٌ ما متمسِّكًا بالأوامر الشرعية والنواهي كان ذلك علامة على ولايته، ومن لا فلا)[1]. ويقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : (لا بد من اختبار صاحب الحال بالكتاب والسُّنَّة، فمن وافق حالُه كتابَ الله وسُنَّةَ رسوله ﷺ، فهو رجل صالح، سواء كاشَفَ أو لم يُكاشِف، ومن لم يوافق فليس برجل صالح، سواء كاشف أو لا)[2].

د - صحة إسناد رواية الكرامة.

هذا الضابط لا بد لمن يعتمده في الحكم بقبول الكرامة من أن

(١) فتح الباري (١٥/ ٢٦٥).
(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٢١٧).

تكون له معرفة مقبولة في علم الإسناد ليميز الثابت من الروايات عن غيرها، وَفق معايير هذا العلم. وفي ذلك يقول الإمام الطحاويُّ رَحِمَهُ اللهُ: **(ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحَّ عن الثقات من رواياتهم).**

هذا، ولا يخفى ما لهذا الضابط من كبير أهمية في إثبات كرامة لصالح بعينه، منعًا للتقوُّل في ذلك، وسدًّا لذريعة الغلوِّ، وقطعا للتزيُّد في نسبة وقائعَ في مجريات أحداث الكرامة؛ والأمر في ذلك على ما قرَّره عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ بقوله: (الإسناد من الدِّين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)(١)، وما أكثر مَن شاء نقل الكرامات، وما أعظم ما شاؤوا في روايتها !

نكتفي بذكر تلك الضوابط الأربعة ؛ التي بها يمكن الحكم على صحة المنقول في شأن الكرامات، ليُصار بعدها إلى قبولها، أو ردِّها.

**٤- نوعا الكرامة.**

قد استقرَّ في أذهان كثير من الناس - وبخاصَّة العامَّة منهم - أن الكرامة إنما تكون بحصول خارق حِسِّيٍّ وحسْب، بَيْدَ أن للكرامة مفهومًا أوسع من ذلك، لتشمل حقيقة معناها، وهو حصول تكريم الله لعبده، ولو لم يكن ذلك بخرق حسِّي للعادة؛ حيث إن بعض الإكرام المعنويِّ يفوق بواقعة وأثره ذلك الخرقَ الحسيِّ.

وعليه، فإنه يمكن تنويع الكرامة إلى نوعين:

- كرامة معنويَّة.
- كرامة حسِّية.

---

(١) كما نقله مسلم في " مقدمة صحيحه " [١/ ٨٧].

أما الكرامة المعنوية، فتشمل الإكرام: بإجابة الدعاء، وحدوث مبشِّرات الرؤى الصادقة، يراها العبد الصالح أو تُرى له، والتوفيق إلى لزوم الاستقامة، ووضع المحبة لعبد في قلوب العباد، أو ذكر عبد من عباد الله بثناء في كتاب الله تعالى، أو سُنَّة رسول الله ﷺ، أو يتولَّى اللهُ سبحانه سَمْعَ هذا العبد وبَصَرَه وجوارحَه(١).

ذلك جميعه قد حوى تكريمًا ورفعة مقام، بل قد يكون الإكرام الحسيُّ (بخرق العادة) تبعًا له.

وأما الكرامة الحسِّية، فهي ما فيه إكرام بخرق للعادة حسًّا (حصول أمر مشهود لكنَّه غير معهود)، وهو المشتهر في نسبته إلى الأولياء، تأييدًا لهم، وإظهارًا لمقامهم، ودعوة إلى الاقتداء باستقامتهم(٢).

**٥- بعض الحكمة في إجرائها.**

إنَّ مزيد التأدُّب مع الله تعالى يقتضي ألَّا ينحصر وقوعُ كرامةٍ إلا بسبب ظاهر، أو حتى باطن ؛ فغاية العلم في ذلك تتبُّع تلك الأسباب المشهودة المنقولة التي يظهر أنَّ لأجلها وقعت تلك الكرامة.

**وعليه**؛ فإنَّ الأسباب لا تنحصر - قطعًا -، وقد تحصل الكرامة لأكثر من سبب في آنٍ، وأذكر فيما يأتي بعضًا من تلك الأسباب:

**أ - تبيُّن الحقِّ، والدعوة إلى اتباعه.**

قد يلتبس الحق أحيانًا بالباطل، فيما يقوم به أهل الباطل من ترويج له، بوسائلَ تُزخرِف للناس باطلًا، وتُشيد به، وتُعتم ظهور الحق

(١) سيأتي تمثيلُ لكرامات معنوية في المطلب السابع من هذا المبحث.
(٢) أيضًا سيأتي تمثيل لكرامات حسية في المطلب المتقدِّم عينه.

ووضوحه، بل تذمُّه وتنال ممن اتبعه، وتنفِّر الناس عنه ! فإذا التبس الأمر على أناس حتى خُيِّل إليهم أن هذا الباطل هو عين الحقِّ أتى أمر يُجريه الله تعالى، يُزيل به ذلك الالتباس.

مثاله : ذلك الشابِّ الصالح الذي يقتله الدجَّال، فيُظْهِرُ اللهُ بشهادته كونَ الدَّجال فتنةً، وأنه على الباطل، ففي حديث ذِكْرِ الدجَّال وما يكون من شأنه، قولُ رسول الله ﷺ: «ثم يدعو - أي: الدجَّال - رجلًا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعُه جزْلَتَيْن رَمْيَةَ الغرض، ثم يدعوه فيُقبل، ويتهلَّل وجهه يضحك» [جزء من حديث أخرجه مسلم]، وفي رواية له أيضًا: «يتوجَّه قِبَلَهُ - أي : جهةَ الدجَّال - رجل من المؤمنين فيتلقَّاه المسالح، مسالح الدجال، فيقولون له : إلى أين تَعْمِد؟ - أي تقصد-، فيقول: أَعْمِدُ إلى هذا الذي خرج، فيقولون: أَوَما تؤمن بربِّنا ؟ فيقول : ما بربِّنا خفاء ! فيقولون : اقتلوه، فيقول بعضُهم لبعض: أليس قد نهاكم ربُّكم أن تقتلوا أحدًا دونه؟ فينطلقون به إلى الدجَّال، فإذا رآه المؤمن قال : يا أيُّها الناس إن هذا الدجَّالُ الذي ذكر رسولُ الله ﷺ -، فيأمر الدَّجَّالُ به فيُشَبَّحُ - أي : يُمَدُّ على بطنه - فيقول : خذوه وشُجُّوه - أي : جرِّحوه في الرأس والوجه - فيُوسَع ظهرُه وبطنُه ضربًا، فيقول : أَوَما تؤمن بي؟ فيقول : أنت المسيح الكذَّاب، فيؤمر به فيُؤشَر بالمنشار من مَفْرِقِه - أي : من وسطه - حتى يُفْرَقُ بين رِجْلَيْه، ثم يمشي الدجَّال بين القطعتين، ثم يقول له : قُم، فيستوي قائمًا. ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازْدَدْتُ فيك إلا بصيرة، ثم يقول - أي : الشابُّ - يا أيها الناس إنه لا يَفْعَلُ بعدي بأحدٍ من الناس، فيأخذه الدجَّال ليذبحَه، فيجعل اللهُ ما بين رقبته إلى تَرْقُوَتِه - وهي العظم الذي بين نُقرة النَّحر

والعاتق - نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلًا، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيَحْسِبُ الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظم الناس شهادةً عند ربِّ العالمين».

فانظر - رحمك الله - كيف كان ثبات ذلك العبد الصالح، وجهره بالحقِّ، وتحمُّلُه الأذى، سببًا في وقوع كرامته في عجز الدجال عن قتله في المرة الثانية، مع محاولته ذلك ! لأجل ظهور الحقِّ للناس، واتباعهم له، وإبطال تلبيس الدجَّال عليهم.

وقل مثلَ ذلك في كرامة الغلام الذي أظهر الله به الحقَّ للناس؛ حيث عجز الملك الكافر الظالم عن قتله إلا بأن يقول: بسم الله ربِّ الغلام، ثم يرميه، فظهر بذلك بُطلان ما كان عليه الملك وجنده، وأحقيَّة ما كان عليه الغلام، حتى قال الناس: آمنا بربِّ الغلام[1].

**ب - ومن الحكمة أيضًا: تفريج كَرْبٍ ألمَّ بالوليِّ، سواء كان ذلك الكرب معنويًّا، أو حسيًّا.**

ومن أمثلة ذلك: إظهار الله تعالى براءة العابد الصالح جُريج صاحب الصومعة، حين رَمَتْه امرأة بَغِيٌّ بتهمة الزنى بها، فأجرى الله تعالى كلامًا نطق به صبيُّها الذي ولدته في مهده !

ومثل ذلك - وأعلى - كلام نبيِّ الله عيسى في مهده؛ مبرِّئًا والدته البتول مريم عليها السلام، داعيًا الناس إلى توحيد ربِّهم، فضلًا عن إظهار طُهرها وبراءتها.

أما الحاجة الحسيَّة، فكربٌ يقع به العبد الصالح؛ كما في خبر

(١) ذكرت القصة بمعناها؛ لشهرتها طالبًا الاختصارَ في ذلك، والقصة في الصحيحين.

الصالحين الثلاثة أهل الغار، وقد سُدَّ عليهم غارُهم بصخرة لا قِبَلَ لهم بزحزحتها فضلًا عن إزالتها، فدعَوْا الله تعالى كلٌّ بأحبِّ أعماله الصالحة إليه، فانكشف عنهم ما هم فيه![١]

وفي بيان أن حاجة الوليِّ سبب ظاهر لإجراء كرامةٍ له ما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بقوله: (ومما ينبغي أن يُعلم هو أن خوارق العادات - أي الكرامات - تكون لأولياء الله تعالى، بحسب حاجتهم، فمن كان بين الكفار أو المنافقين أو الفاسقين احتاج إليها لتقوية اليقين، فظهرت له كظهور النور في الظُّلمة)[٢].

**ج - محض الإكرام للعبد الصالح.**

قد لا يكون ثمة سبب مباشر لإجراء الكرامة، إنما هو مزيد شرح صدر الولي، وإسعاده برضى ربِّه، ومزيد يقين لقلبه.

ومن ذلك المبشِّرات برؤى، يراها العبدُ الصالح، أو تُرى له، كما في الحديث: «لم يبق من النبوَّة إلا المبشِّرات»، قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» [البخاري].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا اقترب الزمان لم تَكَدْ رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوَّة» [متفق عليه].

كذلك إكرام العبد الصالح بسماعه تسليم الملائكة عليه، كما كان للصحابي عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، القائل: (وقد كان يُسلَّم عليَّ حتى اكتويتُ - أي: للاستشفاء -، فتُرِكْتُ - أي تركت الملائكةُ التسليمَ عليه حين اكتوى - ثم تَرَكْتُ - أي: الكيَّ - فعاد) [مسلم].

---

(١) ذكرت ملخَّص القصة، وهي في الصحيحين.
(٢) انظر: منهاج السُّنَّة له (٨/ ٢٠٤).

د - دعاء العبد الصالح.

هذا من أظهر الأسباب، كما أنه من أظهر العلامات على الصلاح، أما كونه من الأسباب فلتواتر حصول الكرامات عند أدعية بعض الصالحين؛ من السلف الصالح ومَن خَلَفَهم في صلاح، وأما كونه علامة على الصلاح فمن حيث الاستجابة الحاصلة لنفع الولي، أو لنفع مَن دعا له، أو في إيقاع ضُرٍّ بمفترٍ على ولي.

ومثاله - وقد تقدَّم - الاستجابة لدعاء الذين أَوَوْا إلى الغار فانسدَّ عليهم حتى ظنُّوا هلاكًا، فأنجاهم الله تعالى.

ومن ذلك استجابة دعاء الصحابيِّ سعيد بن زيد رضي الله عنه، حين ادَّعت أروى بنت أوس عليه أنه أخذ شيئًا من أرضها! فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأَعْمِ بصرَها، واقتلْها في أرضها، فما ماتت حتى ذهب بصرُها، وبينما هي تمشي في أرضها (لا تُبصر) إذ وقعت في حفرة فماتت. [متفق عليه]. وفي رواية لمسلم: أن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر رآها عمياء تلتمس الجُدُرَ، تقول: أصابتني دعوة سعيد، وأنها مرَّت على بئر في الدار التي خاصمته فيها، فوقعت فيها، وكانت قبرها. «مَن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب» [البخاري].

ولا ريب في أن ذلك فيه علامة على ولاية سعيد رضي الله عنه، وهو قبل ذلك وبعده من السابقين الأولين، وهو رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة[(١)].

(١) هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، والزبير بن العوَّام، رضي الله عنهم. وقد جُمع ذكرهم في قول محمد بن إبراهيم الوزير الصنعاني؛ تيسيرًا لمعرفتهم:

للمصطفى خيرُ صحبٍ نصَّ أنهم ... في جنة الخلد نصًّا زادهم شرفا
هم طلحة وابن عوفٍ والزبير كذا ... أبو عبيدةَ والسَّعدان والخُلفا

كما نظم ذِكرهم ابنُ حجر وابن الشِّحنة وغيرهما.

**هـ - الفتنة (الاختبار لمن أُكرم).**

قد تقع خارقة لعبد، فيثبت بها إيمانه، ويزيد يقينه، وينسب تمام المنة بذلك والفضل إلى ربِّه - سبحانه - فيدوم شكره له، وخضوعه وتسليمه، كما قد تقع خارقة لآخر فيجحد المُفْضِلَ، بل قد ينسب ذلك لنفسه، مغترًّا بما عنده.

فأما العبد الشاكر فتكون الخارقة له كرامة، وأما الجاحد فلا تثبت له كرامة، بل هي ابتلاء وامتحان في حقِّه لم يَجْتَزْه !

وقد بيَّن هذه الحكمة الإمامُ الشاطبيُّ رحمه الله في قوله: (الكرامة كما أنها خصوصية، كذلك هي فتنة واختبار؛ لينظرَ كيف تعملون)(١).

ومثال ذلك ما جاء في حديث متفق عليه(٢)، من خبر ثلاثة من بني إسرائيل قد ابتُلوا، أحدهم أبرص، وثانيهم أقرع، وثالثهم أعمى، فأرسل الله إليهم مَلَكًا مسح على كلٍّ منهم فشُفي؛ فاستحال الأبرص ذا لون حسن، وجلد حسن، وزاده الله فرزقه من الإبل، وصار الأقرع ذا شعر حسن، وزاده الله فرزقه من البقر، وارتد الأعمى بصيرًا، وزاده الله فرزقه من الغنم. ثم عاد المَلَكُ إليهم بهيئة منقطع في سفر يطلب عونًا منهم، فأبى كلٌّ من الأبرص والأقرع أن يُعيناه ! لكن الأعمى نسب الفضل في ردِّ بصره إلى الله، وحُسْنِ رزقِه إلى الله، وعرض على السائل أخذ ما شاء من ماله، وأن يدع له ما شاء ! فقال المَلَكُ له : «أَمْسِكْ مالك؛ فإنما ابتُلِيتم، فقد رضي عنك، وسخط على صاحبَيْك».

---

(١) انظر: "الموافقات" له (٢/ ٢٧٣).

(٢) أذكر - هنا - معنى الحديث إجمالًا ؛ طلبًا للاستشهاد بما يخصُّ المقام.

والشاهد فيه أنَّ حصول خارق للعادة قد يكون فتنةً واختبارًا للعبد؛ حيث إنَّ الأعمى لما شكر الله في ردِّ بصره إليه، وحَمِدَه - سبحانه - على مزيد رزقه بالتصدُّق منه، كان وقوع الخارق له كرامةً، أما صاحباه - الأبرص والأقرع - فقد جحدا نعمة ربِّهما، ولم يؤدِّيا شكر الرزق بالتصدُّق منه، فكان الخارق في حقِّهما اختبارًا بالإكرام بالنِّعم لم يجتازاه، وترتب على جحودهما حرمانهما من الكرامة، وباءا بسخط من الله عليهما.

**٦- أحكام مختصة بالكرامة.**

أذكر في هذا المبحث بعضَ أحكامٍ لا يجمل بمؤمن جهلٌ بها، ليكون على بيِّنة في أمر الكرامة فلا ينسبها إلا لربِّه، ولا يخلط بها غيرها، أو يلتبس عليه أمرُها، ولا يخصُّ حصولها بفئة مؤمنة دون سائر المؤمنين، ولا يعلِّق قلبه بمُكْرَمٍ فيغالي في مقامه، فيرفع شأنه عما هو فيه، ولا يزايد في وقوعها حتى ينسبها إلى مَن ليس أهلًا لها، ولا يتزيَّد في وقائعها فيُقحم فيها أحداثًا مخترعة، بدعوى أهليَّة مَن وقعت له !

وليتبيَّن كلُّ سالك واجبَه فيما لو أكرمه ربُّه فوقعت له كرامة، ولا ييأس مَن تأخَّرت عنه، أو امتنعت. وليتواضع وليسلِّم، ولا يجعل عقله - ولو كان حكيمًا حصيفًا - لا يجعله حاكمًا على إمكان حصول كرامة، وامتناع حصول أخرى !

وعليه، فإن مطالب هذا المبحث ستة، كالآتي:

أ - نسبة الكرامة.

ب - تمييز الكرامة.

ج - عموم الكرامة.

د - وجوب التوسُّط في شأن إثبات الكرامة.
هـ - الواجب حين وقوع الكرامة، وحين تأخُّر وقوعها، أو امتناعه.
و - العقل والكرامة.

### أ - نسبة الكرامة.

إنَّ المعرفة بالله تعالى، وما يليق بجلاله سبحانه، واليقين بأنْ ليس للعبد بين يدي ربِّه إلا الاستسلام وتمام الخضوع لمشيئة مولاه، تلك المعرفة وذاك اليقين داعيان لاعتقاد المؤمن بأنه مع وجود أسباب - تقدَّم ذِكْرُ بعضِها - حصلت عندها كرامات، إلا أن ذلك لا يعني انحصار تلك الأسباب، كما لا يعني - أيضًا - توقُّف حصول الكرامة على سبب، وأنَّ مَلاك ذلك كلِّه أنها محض منَّة من الله على عبده، وخالصُ فضل منه عليه؛ يُكرمه بها، ويؤيِّده، ويثبِّته ويبشِّره، ويُنذر عدوَّه، ويدعو مَن بلغته كرامته إلى سلوك مسلكه، وإلى أن يرحل متقرِّبًا إلى ربِّه كما رحل ذلك العبد.

لذا، فإن اعتقاد قدرةٍ في وليٍّ على الاستقلال بإجراء كرامة له، أو لمن تبعه - حال حياته - أو المبالغةَ (الغلوَّ) في اعتقاد ذلك له، حتى بعد مماته! فيتصرَّف، ويُغيث، ويكافأ فيعطي، ويعاقب فيمنع، أو يعاقب فينتقم، كلُّ ذلك مسلك خطير يُودي بسالكه إلى التهلكة.

والواجب في ذلك اعتقاد تصريف الكرامة لله وحده، وانعدام قدرة في ذلك - ذاتية - للوليِّ، مع اعتقاد أن ما جرى له إنما هو بعظيم قدرة مولاه سبحانه، فلا تُنسب كرامة إلى وليٍّ إلا مع اعتقاد أن القدرة على إجرائها إنما هي من الله، وأنْ ليس للوليِّ في ذلك إلا أنه جُعل سببًا في إظهارها، تكرمةً له ورفعة.

ب - تمييز الكرامة.

إنَّ أمر الكرامة - باعتباره أمرًا اعتقاديًّا - هو أمر خطير؛ لذا فإن أعداء الإسلام - إنسهم وجِنِّهم - يعمدون إلى خلط شأن الكرامة الحسية على عامَّة المسلمين، بل على بعض خواصِّهم. فلا يدري أحدهم أهي تلبيس من إبليس وأعوانه الشياطين؟! أم هي تخيُّلات تُرى، وحِيَلٌ تجري، أم إعانات يتهيأ لمن شهدها أنها خرق للعادة من غير سبب، وإنما تكون في صورة خرق للعادة، يتسبَّب به مُعينوه من إنس أو جنٍّ؛ كحمل في الهواء، أو مشي على الماء، أم إحضار طعام أو شراب لم يُعهد عنده، وغيره الكثير مما يدخل في التلبيس أو الإعانة، ويُزعم أنها من الكرامات!

ويمكن تصنيف ذلك - ليُحذر منه - إلى:

- حِيَل يدخل فيها في عصرنا بعض الفيزياء (علم الطبيعة)، أو الكيمياء (علم المواد وخصائصها)، أو تكون من قبيل خداع البصر، وخفة التصرُّف، ما يخيِّل للرائي تحوُّل حال إلى أخرى، وإنما هو بصرف نظر الرائي، وإخفاء المراد تحويله عنه، وقد ينسب هؤلاء أعمالهم هذه إلى السحر، وليست منه في شيء، إنما هي قواعد يتعلمونها، ويكرِّرون الدربة عليها، فضلًا عن أن تكون كرامة!
- تلبيس إبليس وأعوانه؛ فقد تأتي أحدَ المدَّعين فتُريه صورًا، أو تُسمعه أصواتًا، وتلقي إليه وساوسَ بأنَّ ما يشهده إنما هو مواهبُ ربَّانية قد اختُصَّ هو بها! وقد يُري ذلك غيرَه، أو يُسمعه، فيفتتن به، ويعتقد ولايته!

- تلاعب الشياطين بقصد افتتان الناس عن دينهم، كأنْ يهيِّئوا لهم حصول خرق للعادة لأحدهم من غير سبب !

ومن أمثلة ذلك ما حصل لمدَّعي النبوَّة الحارثِ الدمشقي - عليه من الله ما يستحق - حيث كانت الشياطين تُخرج قدمَيْه من القيود، وتمنع السلاح من النفوذ في جسده، ثم إن رُخامة عنده كانت إذا مسحها تُصدر صوت تسبيح ![1]

- خوارق الكُهَّان، حيث يدَّعي بعضهم علم مغيَّبات وإخبارهم بما يقع مستقبلًا، وهذا من أخطر ما يُفتتن به بعض مدَّعي الولاية، والتابعين لهم، والحقُّ أن هذا الإخبار إنما هو من شيطان مارد مُسْتَرِقٍ للسمع، يُلقيها إلى ذلك الكاهن، فيُعْلِمُ الناسَ بها، فيظنُّ هو بنفسه الولايةَ، ويظن سامعه أن إخباره هذا كرامة !

وبيان ذلك فيما صحَّ من الحديث: «إذا قضى اللهُ الأمرَ في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله؛ كأنه سلسلة على صفوان (حجر أملس)، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مُسْتَرِقُ السَّمْع، فيُلقيها إلى مَن تحته، ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن» [البخاري].

- ظهور قدرات خارقة، عند مَن يروِّض نفسه بنوع رياضات، ويصفِّيها بنوع تأمُّلات، مستمرًّا عليها.

وهذا مشتهر عند بعض أهل الهند، بما يسمُّونه (يوجا)، يدَّعون فيه أن إشراقة النفس بتلك الممارسات تؤدي إلى بعض قدرات ممتنع

(١) انظر تلبيس إبليس، لابن الجوزي ص٣٨٠، وقد ذكرت ذلك مختصرًا.

حصولها عمن لا يمارسها، بشرط استمرارها وَفق ترتيب معيَّن متدرِّج، وحقيقة هذا أنه يحصل لكون الإنسان - عمومًا - يتمتع بمواهبَ وقدراتٍ كامنة، لكنها لا تظهر بغير تلك المجاهدات، والرياضات القاسية والتقشُّف، ولا شكَّ في أن ذلك لا شأن له بالكرامة، التي هي - كما عرفت - لا تكون إلا لمؤمن تقيٍّ، وتلك إنما تكون لكلِّ من مارسها، ولو كان برهميًا، هندوسيًا، بوذيًّا، وثنيًّا، وفلسفة ذلك أنَّ مَن يُزاول رياضاتٍ فكرية، وحرمانًا جسديًّا، وقسوة متدرجة، فهو قد لا يشعر بعدها بألمٍ يحسُّ به من لم يُزاول ذلك !

### ج - عموم الكرامة.

قد يتهيأ لكثيرٍ أنَّ وقوع كرامة لعبد، إنما هو مختصٌّ بمن سلك طريقة بعينها، وأن ما يقع له ليس إلا لمتابعته تلك الطريقة، والتزامه بأورادها المتوارثة، وتعلُّقه بسلسلة رجال التزموا بذلك، وأن ذلك أثرًا، وامتدادَ كرامةٍ لمتبوعه، وأنه إن لم يعتقد ذلك فسيناله حرمان من ذلك ! أو أن العبد إذا امتنع عنه حصول كرامة، فإن ذلك لكونها مختصة بطبقة معينة من أهل الولاية !

وإنما استقرَّ في أذهان عموم الناس هذا الاعتقاد بسبب السيل الإعلاميِّ الجارف المروِّج لذلك، وما تلوكه ألسنة الناس من حكايات مُختلَقة - في كثير من الأحيان - تقرِّر هذا الاختصاص، ويدعو مُختلِقوها للَّحاق بركب مَن اعتقدها !

هذا واقعُ حالٍ مُجاف تمامًا لمسلَّمات طريق التقرُّب، ووسائله المشروعة - التي عرفتَها - ؛ فقد قرَّرت الشريعة، وشهد بذلك الواقع

أن حصول كرامة ليس مختصًّا برفعة نسب، ولا بقدر علم، ولا بمزيد جاه، ولا بانتساب لطريقة، ولا بكون المُكْرَم من عُرب ولا عَجَم، ولا بمطلق سببٍ من أسباب الدنيا التي قد يستوي بها الناس، ولا شأن لها باستقامة على طاعة واستمرار عليها، وتَرَقٍّ في معارجها، إنما تلك الاستقامة سبيل مشروع للتقرُّب، وليست سببًا موجبًا لكرامة؛ والحقُّ أن وقوعها - بلا ريب - يعمُّ مطلق مؤمن تقيٍّ، العالم منهم، والعابد، والزاهد والمجاهد، والمنسوب، وغير المنسوب، حتى مَن أسرف في معصية، ثم تاب منها وحَسُنَتْ توبته! فإنه ليس للأولياء مواصفات دنيوية يختصُّون بها، ولا بمظاهرَ لباسٍ يتزيون بها، رثَّة كانت أم متميزة بألوان أو بهيئات، ولا بإطالة شعر أو حلق له، أو لمن أطال عقد سُبحته، أو تمابل في مجلس وقفز، أو أمرٍ مما هو مشاهَد مدَّعًى، إنما كلُّ مَن اتصف باستقامة، وخلا من بدعة، واجتهد في عبادة، ولو كان من عامة أهل الإسلام، فهو أهل - برحمة الله ومنِّه وفضله - لأنْ يكون عبدًا مكرمًا، سواء جرت له كرامة أو لم تجر. فاجتهد - أيها المتقرِّب - ولا تغرَّنك مظاهرُ خدَّاعةٌ يروِّج لها بعض من أبناء جلدتنا، وآخرون من عدوِّنا، يصوِّرون بذلك الإسلام منفصلًا عن واقع الحياة، وأن أهل التديُّن إنما هم (دراويشُ) قابعون في زواياهم، يمارسون طقوسًا مختصَّة بهم، ولا شأن لأحدهم بأمر المسلمين: عَزُّوا أم هانوا، ظُلِمُوا أم أُنْصِفُوا، نافسوا الأممَ في حضاراتهم، أم تخلَّفوا عن الرَّكب، بل غاية أمرهم تكثير أتباع طريقهم، وإثبات أحقيَّتهم في الاتباع، وإلا فلن تحصل كرامة، ولن تُشْهَد!

### د - وجوب التوسُّط في شأن إثبات الكرامة.

توسَّط أهل السنَّة والجماعة بين المعتزلة المنكرين - بعامَّة - لكرامة الأولياء من جهة، والصوفية المغالين في إثبات الكرامة لغير الأولياء من جهة أخرى، وإنما هي أحوال شيطانية تجري على يد مَن اتخذوهم أولياء من دون الله ﷻ، ودون عباده الصالحين المؤمنين، فقد توسَّط أهل السُّنَّة والجماعة بين هؤلاء وهؤلاء فقالوا بإثبات كرامة الأولياء، لكنهم وضعوا مسائلَ وقيودًا وشروطًا لمعرفة ما إذا كانت هذه معجزة، أو كرامة، أو هي خارقة من خوارق العادة تجري على يد السحرة والكُهَّان، فصارت المسألة - عندهم - مسألة اعتقادية يثبتونها، ويميزونها عن غيرها، ولا يُغالون بها، ولا يثبتونها لغير أهلها؛ فالكرامة عند أهل السُّنَّة والجماعة ثابتة بالقرآن والسُّنَّة والواقع والعقل، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، لا خوف عليهم في الدنيا، ولا يصيبهم حزن، ولا غم، ولا كرب يوم القيامة، ثم عرَّفهم الله ﷻ فقال - سبحانه -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٣] ثم أثبت لهم - تبارك وتعالى - البشارة في الدارين، فقال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

**وعليه**؛ فإن إثبات الكرامة أمر مقرر عند علماء الأمة، إثباتًا ينافي الجفاء كما فعله المعتزلة، وينكر المغالاة كما ذهبت إليه غلاة المتصوفة، وذلك بضوابطَ وتفريقاتٍ بينها وبين ما قد يلتبس بها، كما تقدم ذِكْرُ ذلك وبيانُه.

### هـ - الواجب حين وقوع الكرامة، وحين تأخُّر وقوعها، أو امتناعه.

إن كلَّ مؤمن تقيٍّ له حظٌّ في الولاية، ثم يتفاضل أهل الإيمان في إيمانهم، وأهل التقوى في تقواهم، ليتفاضل في تنافسهم هذا مقدار ولايتهم.

**وعليه**، فإن مَن جرت له كرامة منهم لا يفضَّل على سائرهم بإطلاق، ولا تثبت له العصمة بحال.

إذا تقرَّر هذا فإن واجب كلِّ مؤمن تقيٍّ وليٍّ لله تعالى، إذا أكرمه ربُّه، فجرى له خرق للعادة، حسيًّا كان أو معنويًّا، الواجب في حقِّه أن يستجمع خمسة أمور؛ ليكون بها أهلًا لهذا الإكرام، وليكون هذا الإكرام مدرجًا لرفعة قدره عند ربِّه، وإلا خِيف على مثله أن تَزِلَّ قدمه بعد ثبوتها، وأن يفتتن بما أُكرم به، وأن ينقطع عنه ما وجده ! بل قد ينتكس حاله - عياذًا بالله - معتدًّا بما حصَّله، غير مبالٍ بالتزام أمر، أو الانزجار عن نهي؛ اتكالًا منه على مقام حصَّله، فظن أنه مفضَّل على سائر السائرين، وسابق في ركب السالكين، لا يُجارى ولا يُبارَى !!

وهاك تلك الأمور الخمسة المحصِّنات من الافتتان:

- المبادرة بالفرح؛ فرحًا مطبوعًا باطمئنان القلب إلى حُسن السير إلى الله تعالى، فرحًا داعيًا إلى حُسن التفكُّر بعظيم قدرته سبحانه، مع حُسن التدبُّر في عظيم حكمة المولى ﷻ، في تثبيت عبده، وتبشيره، ودعوة غيره لسلوك مسلكه، ونشر دينه وإظهاره، وتأييده - تبارك اسمه - لعباده، فرحًا داعيًا إلى الاستمساك بجادَّة الصواب، والاستقامة على صراط الحق.

- المبادرة بالشكر؛ قلبًا، ولسانًا، وعملًا، شكرًا يستدعي الخضوع والتسليم، ويُورث المزيد من الإنعام بالإكرام.
- الخضوع بالتواضع؛ تواضعًا يستلزم عدم الإشهار، فإن اتفق ظهور الكرامة فبها ونعمت، وإن خفيت فالخفاء أعظم، تاركًا المباهاة بل مُبعدًا أدنى طلبٍ للتميُّز عن سائر السالكين.
- المبادرة إلى مزيد الاجتهاد، في التكثُّر من القُربات، وبخاصة منها التنفُّل في الأزمنة الفاضلات المباركات؛ فلا يفوته وقت مبارك، ولا موسم طاعة إلا ويستكثر فيه من فعل الخيرات.
- عدم الاتكال على ما حظي به من إكرام، بل على نقيض ذلك، فإن الكرامة للمؤمن التقي الحصيف داعية له - جزمًا - إلى مواصلة السير بجد أبلغ، وإخلاص أعظم.

**تنبيه**: قد يقع لبعض السالكين المكرمين - إذا عُلمت كرامتُهم واشتهرت - يقع لهم اغترار بثناء الناس والأتباع عليهم ؛ فيكتفي أحدهم عندئذ بما تبوأ من مقام، وقد يظن أن له فضلًا على كلِّ تابع له، وأنه لن يستطيع سَبْقَهُ ولا اللحاق بمقامه، ويقضي عمره بعد ذلك متكاسلًا في طاعته، مستقلًا من عباداته، يحدوه إلى ذلك اعتقادُه أنه وصل لبغيته، مغترًّا - عياذًا بالله - بدوام ثناء الناس عليه !

### و - العقل والكرامة.

المقصود بهذا المطلب: معرفة مجال إعمال العقل، وحدود تقييمه للكرامة، والحكم بإمكان وقوع كرامة بعينها.

إن من مسلَّمات مفاهيم الشريعة استحالة تعارض دلالة نصٍّ صريح

صحيح مع حكم عقليٍّ سليم، وأن تقديم النصِّ الشرعي واجب عند توهُّم تعارضه مع العقل.

لذا؛ ولكون الكرامة (من العقائد السنية التي يجب اعتقادها، ولا يجوز نفيها وإهمالها)[١]، ولكونها أمرًا مشتملًا على خرق للعادة، تستغربه، بل قد تستهجنه أو تنكره العقول، فإن مجال العقل في الحكم على الكرامة لا بدَّ من أن يكون مقتصرًا على مُدركاته، سواء منها الحسية أو المعنوية، لافتقار العقل لمعلومات أوليَّة متعلقة بالغيبيات، فلا يُعقل أن يُطلب منه الحكم على أمر غيبيٍّ غاب هو - أي: العقل - عن تصوُّره. بل إن عقول مَن سَلَفَ من الأمم لو أُعلم أصحابُها بخبر ما هو مشاهد اليوم من تطوُّر تقنيٍّ حسيٍّ باهر لأنكرت ذلك جزمًا.

أقول: لذلك كلِّه - وغيره - فإن مجال العقل منحصر في شأن الكرامة على أمور؛ منها:

- التحقُّق من ثبوت سند رواية الكرامة؛ إما بنقل جمٍّ غفير لها، أو بصحة إسنادها إلى المُكرَم، بنقل العدول الثقات إليه.
- التحقُّق من ثبوت فضل مَن نُسبت إليه، واستقامته، وترك ابتداعه.
- التحقُّق من عدم معارضة مفردات أحداث الكرامة لمسلَّمة شرعية.
- التحقُّق من عدم الحكم باستحالة وقوع هذه الكرامة عقلًا؛ أي: أن العقل لا يحكم باستحالة حصولها[٢]، ولو أنه حكم باستبعاد ذلك.

---

(١) انظر: لوامع الأنوار للسفَّاريني (٢/ ٣٩٢).

(٢) الحال أن بعض المصنفات قد حوت عشرات بل مئات القصص في الكرامات، مما يُحيل العقلُ حصولَه، ولم أذكر في المتن شيئًا منها ضنًّا بوقت القارئ، من الاطلاع على هراء حَشْوٍ يأنف العقل عن قبوله، ويحكم حالًا باستحالته.

ومن أمثلة الاستبعاد - لا الاستحالة - تساقط الرطب الجَنِيِّ لمريمَ عليها السلام بهزٍّ خفيف، ورزقها المتواصل بطعام في غير أوانه في محرابها، بل خلق عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام منها بنفخة فيها !

- الاشتغال بالاطلاع على قصص كرامات ثابتات في الكتاب والسُّنَّة مما جرى لأمم سالفة، أو لأمَّتنا المُكرمة، ومن ثَمَّ محاولة قياس مجريات الكرامة المرويَّة على مجريات تلك الكرامات الثابتات.
- ومما للعقل فيه مجال أن يتحقَّق من حصول خرق للعادة في الحادثة، وأن هذا الخرق كان على سبيل الإكرام، لا من إضلال وغواية الشياطين، أو من أعمال السحرة، أو إنباء الكهنة، أو بإجراء خفة يد، أو خداع بصر، وغيره. وسبيل ذلك التحقُّق إنما يكون بمعرفة موثَّقةٍ لحال مَن أُجري له هذا الخرق للعادة.

**تنبيه**: إن إعمال العقل فيما ذُكر وأمثاله، يُعتبر ضرورة في الحكم على قبول حصول الكرامة من عدمه. لكنْ ينبغي لمن سلك هذا المسلك اتباع منهج علميٍّ مقرَّر في ذلك، فلا يردُّ حصولَ كرامةٍ لأهلها بتسرُّع من غير تحقُّق.

### ٧- نماذجُ من كرامات ثابتات لأهلها.

إن المرويَّات في شأن الكرامات جمٌّ غفير، يكاد المتتبِّع له أن لا يحصَيه، ولو بذل في ذلك وسعه، وصرف في ذلك وقته، ولعل مردّ ذلك إلى أمرين، أولهما: الكثرة الكاثرة للمرويَّات في ذلك - كما تقدَّم-، وثانيهما: أن قومًا لا شأن لهم إلا التزيُّد في روايات الكرامات، جامعين لها جَمْعَ حاطب بليل، خالطين غثَّها بسمينها؛ بل إنهم ليحوزوا قَصَبَ السَّبْق في ذلك، قد يختلقون أحداثًا، ويدَّعون

خوارقَ لأُناس، هم أهل لحدوث تلك الخوارق، إلا أنها لم تحدث لهم أصلًا ! أو قد يدَّعون حدوثها لمن لم يكن أهلًا لذلك !

وسأقتصر في هذا المطلب على ذكر كراماتٍ في ذكرها غُنْيَةٌ عن ذكر سواها، يطمئن قلب السالك في تدبُّرها، والتأسِّي بأهلها.

**وعليه،** فسيكون هذا المطلب على ثلاث مسائل، كالآتي:

- نماذج من الكرامة في القرآن الكريم.
- نماذج من الكرامة في السُّنَّة المطهَّرة.
- نماذج من الكرامة في سِيَرِ السَّلف الصالح.

وسأضرب صفحًا عن ذكر كرامات المعاصرين، أو في عصور قريبة - مع عدم استبعاد حصولها، بل كثرة حصولها - لاعتبارات؛ منها: اختلاف رواتها في مفردات أحداثها، أو ملابسات حصولها، أو وقوع مزايدات فيها، أو غلوٍّ في أصحابها، فيكون هذا وسيلة لاعتقاد العوام بتفضيل من نُسبت إليه تفضيلًا مبالغًا فيه، والتحزُّب له، والدعوة إلى اتباعه دون غيره من الصالحين، أو اعتقاد بعضهم حَصْرَ الولاية في هؤلاء، ووجوب الانتساب إلى طريقتهم، وإلا فلن تحصل ولاية لأحد، ولا كرامة له إلا بذلك !

### ❖ نماذج من الكرامة في القرآن الكريم.

- كرامة تقبُّل الله تعالى دعاء امرأة عمران (أمِّ مريم عليها السلام).

قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ

أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

والحقُّ أن كرامة امرأة عمران لم تكن باستجابة دعائها بالحَمْل وحسب، بل باستجابة دعائها بتحصين حملها، بل وذريَّة حَمْلها، تحصينًا تامًّا من الشيطان الرجيم، فقد (عوَّذت امرأة عمران ابنتها بالله ﷻ من شر الشيطان، وعوَّذت ذريَّتها، وهو ولدها عيسى عليه السلام، فاستجاب الله لها ذلك)(١). وقد اختصَّ الله تعالى - استجابة لدعائها، وإكراما لها - اختصَّها وابنَها عيسى عليه السلام، من عامة بني آدم من مسة الشيطان عند الولادة؛ قال النبيُّ ﷺ: «ما من بني آدم مولود إلا يَمَسُّهُ الشيطانُ حين يولد؛ فيستهلُّ صارخًا من مَسِّ الشيطانِ غيرَ مريمَ وابنِها» [متفق عليه].

١- كرامة الصِّدِّيقة(٢) مريم (أُمِّ عيسى عليهما السلام).

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٦٠).

(٢) وصف مريم بالصِّدِّيقة هو المتعيِّن في وصفها؛ لوصف الله تعالى لها بذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقد تقرر معتقد أهل السنة والجماعة أنه ليس في النساء نبية؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]، لذا، فهي صِدِّيقة من أولياء الله تعالى؛ فمجيء المَلَكِ إليها، وتبشيرها لها بعيسى عليه السلام، ومخاطبة الملائكة لها؛ كلُّ ذلك ينصرف إلى ولايتها وإكرام الله ﷻ لها.

ووجه الكرامة في ذلك: وجود هذا الرزق دون إحضاره لها من نبيِّ الله زكريا عليه السلام، بل دون أن يتسبَّب فيه أحد، وكون هذا الرزق ميسَّرًا لها، وهو مفقود في غير وقته (موسمه)، ودخول هذا الطعام إليها وهي منعزلة في محرابها الذي أدخلها إليه زكريا !

قال الطبري رحمه الله: (يعني بذلك - جلَّ ثناؤه - : أن زكريا كان كلما دخل عليها المحراب، بعد إدخاله إياها المحراب، وجد عندها رزقًا من الله لغذائها ! فقيل: إن ذلك الرزق الذي كان يجده زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء).

قال ابن كثير رحمه الله: (وفيه دلالة على كرامات الأولياء، وفي السُّنَّة لهذا نظائرُ كثيرة).

هذا، ومن كرامات الصِّدِّيقة مريم التي أذكرها سردًا، دون تفصيل: عظيم شأن نفخ الله فيها من روحه، وتساقط الرطب الجنيِّ بهزٍّ يسيرٍ منها لجذع النخلة اليابس، في غير أوان ثمرها[(١)]، وإجراء نهر لها تشرب منه، وتبرئتها بكلام ابنها عيسى عليه السلام بعد إشارتها إليه، كلامه صبيًّا في المهد ناطقًا بردِّ فرية بني إسرائيل باتهامهم لها - بهتانًا - بالزنى.

٢- كرامة الفتية المؤمنين (أصحاب الكهف).

قد يندر أن مسلمًا لم يَتْلُ سورة الكهف، وبخاصة يوم الجمعة،

---

(١) لعل في أمر الله للصِّدِّيقة مريم بهزِّ الجذع، مع شدَّة ضعفها بالحمل، لعل فيه تنبيهًا على ضرورة الأخذ بالأسباب، وإن كانت في صورتها لا تحتمل وقوع تلك الرطب جنيًّا، وأن الوليَّ المكرم لا يحتمل - ألبتة - أن يكون خرق العادة من صنعه هو بقدرة ذاتية.

وقد يستحيل أن مسلمًا لم يتناه إلى مسمعه خبر أصحاب الكهف، وقد نزلت سورة بتمامها مسمَّاة بكهفهم !

قدَّمْتُ بهذا اعتمادًا على حصافة القارئ، وإحسانًا بالظن به؛ لأَشْرَعَ بعدها بذكر بعض وجوه في تدبُّر كرامة أولئك الفتية من خلال السورة الكريمة، فمن ذلك - مثالًا، لا حصرًا -:

- قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ٩-١٠].

(فيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص، إلى أن الأَوْلى لهم الاتعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها؛ ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠][١].

وفي شأن التقرُّب يُستفاد بأن السالك المتقرِّب حقًّا هو الذي لا يستبعد، ولا يتعجَّب - ألبتة - من خرق عادة لوليٍّ مكرم، بل إن شأن هؤلاء - مع عظيم عجب أمرهم - ليس إلا نموذجًا لما يكرم الله به بعض عباده !

كذلك، فإن السالك الحقَّ لا يتتبَّع عجائب أمور الإكرام لذاتها، بل يبحث عن أسبابها، وينظر إلى آثار رحمة الله فيها، وتحثُّه تلك العجائب على مزيد الاجتهاد، لا لطلب عجيبة إنما لطلب رحمة الله، ولتحقيق مزيد من الاستقامة طلبًا لمرضاة ربِّه، وأن المؤمن التقيَّ إذا تعذَّر عليه

(١) (انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥/ ٢٥٩).

الاستقامة على دين الله في موضع هاجر منه إلى موضع يمكنه فيه ذلك؛ فرارًا بدينه، ومحافظه عليه.

ولعل في قول الله تعالى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٦]، عجيبة؛ حيث سيَّرهم الله تعالى إلى هذا الكهف بعينه، لا إلى غيره؛ كهف بمواصفات معيَّنة يكون متناسبًا مع أسباب حفظهم، ودواعي الارتفاق والتلطُّف بهم !

- قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]، (بالصبر والتثبيت، وقوَّيناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العزِّ وخِصْبِ العيش، وفرُّوا بدينهم إلى الكهف)[١].

ووجه الإكرام في ذلك أن عادة الناس لا تحتمل هذا الفرار، من الرفاه إلى شظف العيش، ومن التنعُّم إلى التقشُّف، ومن مقارنة الأهل والأصحاب والأحباب إلى عزلة في كهف ناء، قد لا يمرُّ به أحد دهرًا ! فأكرمهم الله بملء قلوبهم صبرًا وقوة، حتى صار ذلك أحبَّ إليهم مما كانوا فيه !

- قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ١٧].

(ومعنى الآية أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها، ولا عند غروبها، لئلا يحترقوا بحرِّها، فقيل: إن ذلك كرامة لهم وخرق للعادة)[٢].

---

(١) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) [٣/ ١٧].
(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (تفسير ابن جزي) [١/ ٥٠٤].

(يقول عزَّ ذكره : فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء الفتية؛ بحيث تزاور الشمس عن مضاجعهم ذات اليمين إذا هي طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا هي غربت، مع كونهم في المتَّسع من المكان، بحيث لا تحرقهم الشمس فتشحبهم، ولا تبلى على طول رقدتهم ثيابُهم، فتعفَّن على أجسادهم، وهذا من حجج الله وأدلته على خلقه، ومن الأدلة التي يستدل بها أولو الألباب على عظيم قدرته وسلطانه، وأنه لا يُعجزه شيء أراده)(١) .

وهذا الصَّرْفُ للشمس عنهم هو من عظيم إكرام الله لهم؛ حيث إن حركة سقوط أشعة الشمس كانت تبعًا للترفُّق بهم، وحفظهم، فكانت أشعتها تميل عن موضع كهفهم إذا طلعت، وتعرض عنهم وتعوجُّ عن السقوط عليهم، ثم إذا هي مالت للغروب تترك أشعتُها السقوطَ عليهم وتتجاوزهم من غير أن تصيبهم !

- قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ [الكهف: ١٨].

هذا أيضًا من حفظه - سبحانه - لأبدانهم ؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها؛ فكان من قَدَرِ الله أنْ قلَّبهم على جنوبهم يمينًا وشمالًا، بقدر ما لا تُفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم أراد أن تجري سننه في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

- قال تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ [الكهف: ٢٥-٢٦].

الكرامة في ذكر مدة لبثهم في كهفهم أنهم مع طول تلك المدة

(١) انظر: جامع البيان (تفسير الطبري) [١٥/ ١٤٠].

المديدة، كان أولئك الأولياء محفوظين من الأرض، محفوظين من الآدميين، محفوظين من الهوام والسباع، محفوظين من التأثر بعوامل تغيُّر المناخ، كل ذلك الحفظ وبالغ العناية وهم نائمون لا حول لهم ولا قوة؛ ثم إنهم لم يطلبوا ذلك الحفظ العظيم، إنما أوتوه إكرامًا لهم لتديُّنهم الحق، واستقامتهم، وإيثارهم مرضاة ربِّهم!

فقد (بُعثوا صحيحةً أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم، فلم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا)(١).

ولعلَّنا نكتفي بهذا القدر من وجوه تدبُّر كرامة أصحاب الكهف؛ لتضيُّق المقام عن الإحاطة بها، ولو أُفرد لها مصنَّف بتمامه لضاق عن إتمامها، وقل مثل ذلك - وزد - في ذكر كرامة العبد الصالح الخَضِرِ في رحلة موسى عليه السلام معه(٢).

٣- كرامة (الذي عنده علم من الكتاب).

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النَّمل: ٤٠](٣).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [٣/ ٧٦].

(٢) قد أكثر الناس في التعلُّق بكرامات الخضر، حتى ادعى بعضهم لقاءً به، أو أخذًا مباشرًا عنه! والواجب في ذلك الحذر من التوسُّع، ومن المبالغة في شأنه، وانظر - إن شئت - كتاب الحذر في أمر الخَضِر، لملَّا علي القاري؛ فقد بيَّن فيه - بضوابطَ شرعيةٍ معتبرة - ما يتعلق بهذا الشأن.

(٣) أي: أعجل من تلك المدة المستغرقة لمجلسه عليه السلام للقضاء والحكومات - وكان ذلك من أول النهار (الضحى)، إلى أن تزول الشمس (الظهر). وقد عرض إحضار عرش بلقيس عفريت من الجن في هذه المدة، قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النَّمل: ٣٩].

القصة - هنا - استفاض خبرها، وهي أشهر من أن تُعرَّف أو يفصَّلَ فيها، لكن المقصود والشاهد هنا: أن نبيَّ الله سليمان عليه السلام لما أراد (إظهارَ عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخَّر له من الجنود الذي لم يُعْطَه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجَّة على نبوته عند بلقيس (ملكة سبأ اليمنية) وقومِها، لأن هذا خارق عظيم أن يأتيَ بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليها، وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أَعْجَلَ من ذلك. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] قال ابن عباس: هو آصَفُ كاتبُ سليمان)[١].

إن ما عليه أكثر المفسِّرين أن هذا الوليَّ الصالح آدميٌّ (من البشر)[٢]، وأن المشهور في اسمه أنه (آصف)[٣]؛ وسواء كان ذلك كذلك، أو أنه دعا الله باسمه الأعظم أم بدعاء معيَّن دعاه، فإن ذلك الخرق العجيب للعادة، بأن يُجري الله له إحضار عرش عظيم محصَّن من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في مدة زمنية تكاد لا تذكر، لا ريب بأن تلك كرامة لهذا العبد الصالح، وأعظم من حصولها إشهارُها، وإشهادُ الملأ عليها، بل تنزيل قرآن كريم يُتلى إلى يوم القيامة في شأنها[٤].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) [٦/ ١٧٣]، وذكر رحمه الله، ينقله عن ابن إسحاق، أن يزيد بن رُوْمان قال: إنه آصف بن برخياء، وكان صِدِّيقًا يعلم الاسم الأعظم. ونقل عن مجاهد رحمه الله أن اسمه (أسطوم)، وعن قتادة أن اسمه (بليخا).

(٢) ليس من الجن، ولا من الملائكة - جبريل عليه السلام - أو غيره، ولا هو سليمان نفسه، على ما ذكره بعض المفسِّرين.

(٣) كما نسبه الإمام الشوكاني لأكثر المفسِّرين، انظر: " فتح القدير " له [٤/ ١٣٩].

(٤) فكيف - والحال هذه - ينكر منكر المعتزلة حدوث كرامات، أو يضطرب رأيه في إثباتها؟!

❖ **نماذج من الكرامة في السنَّة النبويَّة.**

أرشد رسولُ الله ﷺ أُمَّتَه، بأنْ قصَّ عليهم أخبار عباد صالحين مقرَّبين، أجرى الله لهم كرامات، والوارد في ذلك ثلَّة من الأحاديث لا يتسع المقام لاستجماعها، لكن الغرض هنا ذكر نماذج منها، واستنباط شيء يسير من فقهها.

١- قال رسول الله ﷺ: «بينا رجل بفَلاةٍ من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اِسْقِ حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرَّةٍ، فإذا شَرْجَة من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كلَّه، فتتبَّع الماءَ فإذا رجل قائم في حديقته يحوِّل الماء بمِسْحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة! فقال: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اِسْقِ حديقة فلانٍ؛ لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أمَا إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدَّق بثُلُثِه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأَرُدُّ فيها ثلثه» [مسلم]. والشرجة: مَسِيلُ الماء من الحرَّة إلى السهل[١].

ولعلَّ وجه الإكرام في ذلك مشترك بين السامع وصاحب الحديقة؛ فالسامع خُرقت له العادة بسماع صوت من السحاب، وصاحب الحديقة بتخصيصه بماء السحابة؛ لأجل صلاحه، ودليل صلاحه: مبادرته لتخصيص ثلث الناتج للتصدُّق به، وأكله وعياله ثلثًا معتقدًا حِلَّه وبركته، واجتهاده في تخصيص الثلث للعمل في إنماء وتثمير حديقته، والأكل من صنع يده، وعدم سؤاله الناس.

---

(١) كما بيَّنه ابن الأثير في "النهاية في غريب الحديث والأثر" [٢/٤٥٦].

٢- قال عليه الصلاة والسلام : «زار رجل أخًا له في قرية أخرى، فَأَرْصَدَ اللهُ له على مَدْرَجَتِه (طريقه) مَلَكًا؛ فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال : أريد أخًا لي في هذه القرية، قال : هل لك عليه من نعمةٍ تَرُبُّها (تستوفيها)؟ قال : لا، غير أني أحببته في الله ﷻ، قال : فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبَّك كما أحببتَه فيه» [مسلمٌ، والبخاريُّ في "الأدب المفرد"].

قد تقدَّم - كما علمت - أن رباط الأخوة في الله، والتحابَّ في جلاله، هو من أعظم القربات، الموصلة إلى رضى الله، والدالَّة - جزمًا - على عظيم إيمان كلٍّ من المتحابَّين، وأن هذا الحبَّ من أوثق عُرى الإيمان، باعتباره رابطًا ليس فيه مصلحة دنيوية، فكيف لا يكون مثلُ ذلك مدرجًا للولاية. ثم انظر - رحمك الله - إلى جلال منزلة تلك الأخوة، بحيث اختص الله ذلك الساعي لأخيه بإرسال ملك يحدثه برسالة منه سبحانه !

فأقرب طريق إلى محبَّة الله تعالى للعبد أن يحب المؤمن أخاه، لا يحبُّه إلا لله، وفي حبِّ الله، وفي جلال الله.

كما أن في الحديث أن السعي لزيارة أخٍ صالح؛ والتقرُّب منه، أو أخذ علم منه، أو إعانته، أو عيادته، كلٌّ ذلكً من عظيم القربات.

٣- شابٌّ مؤمن من أولياء الله الصالحين، يعجز الدجال عن قتله !

ففي خبر الدجَّال، وما يكون من أمره، يقول رسول الله ﷺ: «فيخرج إليه (إلى الدجَّال) رجل هو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله حديثَه، فيقول

الدجَّال : أرأيتم إنْ قتلت هذا، ثم أحيَيْتُه، هل تشكُّون في الأمر؟ فيقولون : لا، فيقتله ثم يُحييه ! فيقول : (أي: الشابُّ): واللهِ ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسلَّط عليه» (متفق عليه). وعند مسلم - أيضًا -: «ثم يقول المؤمن : يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال : فيأخذه الدجَّال، ليذبحه، فيُجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلًا».

رجل مؤمن بالله ورسوله، موقن بوقوع ما أخبر به رسول الله ﷺ، ساعٍ في دعوة الناس، مُظْهِر للحقِّ لهم، مجاهر به، ولو كان ذلك ثمنه إزهاق نفسه ! خرق الله له العادة في عدم إجراء العادة ! فقد كان معتادًا أن يقتل الدجال من شاء، وقد قتله هو - فعلًا - في المرة الأولى، ثم لما أراد قتله مرة ثانية عجز عن ذلك؛ ليعلم الناس أن إحياء الدجَّال له بعد قتله لم يكن خرقًا للعادة قام به الدجَّال، إنما هو فتنة له ليغترَّ، ثم هو يعجز عن القتل لا عن الإحياء في المرة الثانية !

وفي الحديث كرامة المجاهد، وعظيم منزلة الشهداء عند ربِّهم، وأن الجهر بالحقِّ عند رافضه هو من خير العمل الصالح المقرِّب إلى الله تعالى، وأن الشهداء هم خيرة الأولياء. «والذي نفسُ محمَّدٍ بيده لودِدْتُ أني أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل» [مسلم].

**❖ نماذج من الكرامة في سِيَرِ السَّلف الصالح.**

يقول النبيُّ ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم» [جزء من حديثٍ متفقٍ عليه].

(الصحيح أن قرنه ﷺ: الصحابة، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم)[١].

هذا الحديث نصٌّ صريح في ثبوت تفوُّق أهل القرون الثلاثة الأولى في خيريَّتهم على سائر مَن بعدَهم؛ حيث تقرَّر أنه لن يلحق بفضلهم مُجِدٌّ في صلاح، ولا مجتهد في تحصيل علم، لا لكون بعض مَن بعدَهم لا يوازي بعضهم في صلاح، أو في سعة علم، إنما لحيازة الصحابة رضي الله عنهم فضل الصُّحبة الذي لا يُلحق، ولإدراك التابعين صحبة مَن صَحِبَ، ولإدراك تابعيهم لهم، فنالهم نصيبهم من فضل الخيريَّة.

لذا، ولكون خوض غمار هذا المبحث أمر شائك، اختلط فيه غث بسمين، وثابت بمَنْحُول، وتزيَّد فيه مَن شاء بما شاء، فعجَّت بذلك مصنَّفات - بتمامها - بمرويات قصص الكرامات - قديمًا وحديثًا - فقد آليت لذلك كلِّه الاقتصار على ذكر نماذجَ من عظيم كرامات الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله، وأن أضرب صفحًا عمَّا روي عمَّن بعدهم من كرامات؛ لا لانعدام ذلك، بل هو كثير جمٌّ غفير لا يزال يتكاثر؛ كلَّما تباعد العهد عن زمن السلف الصالح، فإن من المقرَّر أن أعظم ما يحتاجه المسلمون هو تقوية إيمانهم، وتثبيتهم على دينهم، وتأييدهم في الدعوة إليه، ومعلوم أن وقوع الكرامات يُسهم بقدر كبير في تحقيق ذلك، ولم يكن ذلك مطلوبًا - بهذا القدر - في زمن السلف الصالح، ما يفسر قلة حدوث كرامات لأهل الخير الأوَّلين، مع كونهم - بلا ريب - هم أحقُّ الناس بها لخيريَّتهم، ومزيد صلاحهم.

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (١٦/ ٨٥).

ولنشرع - بعد تقرير هذا - في ذكر تلك النماذج دون استنباط فوائدَ منها؛ طلبًا للاختصار:

### أ - نماذج من كرامات الصحابة رضي الله عنهم.

**١- من كرامة صِدِّيق هذه الأمَّة، وخيرِها، أبي بكر رضي الله عنه. (تكثير الطعام القليل !).**

حدَّث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أنَّ أصحاب الصُّفَّة[(١)] كانوا أناسًا فقراء، وأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال مرة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث - أي: من أهل الصُّفَّة - ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، أو سادس، - أو كما قال - وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعشرة، وأن أبا بكر تعشَّى عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثم لبث حتى صلَّى العشاء، ثم رجع، فلبث حتى تعشَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك؟ قال: أَوَعَشَّيْتِهم؟ قالت: أَبَوا حتى تجيء، قد عرضوا عليهم فغلبوهم، فذهبت فاختبأت (أي : عبد الرحمن رضي الله عنه). فقال - أي : أبو بكر - يا غُنْثَر[(٢)]، وقال: كلوا، وقال: لا أَطْعَمُه أبدًا، قال: - أي: عبد الرحمن - وايمُ الله (يُقْسِمُ بالله)، ما كنَّا نأخذ من اللقمة إلا رَبَا (زاد) من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبلُ ! فقال لامرأته : يا أخت بني فراس، ما هذا؟ قالت: لا ، وقرَّة عيني لهي الآن أكثر مما

(١) أصحاب الصُّفَّة: أناس فقراء غرباء لا مأوى لهم، كانوا يأوون إلى مكان مظلَّل في مؤخَّر المسجد النبوي، يطلبون المجاورة وتلقِّي العلم.

(٢) هي كلمة توبيخ وزجر؛ تعني: يا جاهل (من الغثارة والجهل)، أو يا سقيم، أو الثقيل الوخم، والنون زائدة، انظر: لسان العرب لابن منظور مادة (غثر). ويُلحظ هنا أن أبا بكر رضي الله عنه قال ذلك في حال غضبه الشديد.

قبل بثلاث مرات، فقال : إنما كان الشيطان، يعني يمينه - التي أقسم بها ألَّا يأكل - ثم أكل منها لقمة، ثم حملها إلى النبيِّ ﷺ فأصبحَتْ عنده، وكان بيننا وبين قوم عهد، فمضى الأجلُ، فتفرَّقنا اثنا عشر رجلًا، مع كلِّ رجل منهم أناسٌ، الله أعلم كم مع كلِّ رجل، قال: فأكلوا منها أجمعون ! [متفق عليه].

**٢- من كرامة فاروق هذه الأمَّة عمرَ رضي الله عنه.**

حدَّث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن عمر بن الخطاب بعث جيشًا أمَّر عليهم رجلًا يدعى سارية[١]، قال - أي: عبد الله -: فبينما عمرُ يخطب الناسَ يومًا، قال: فجعل يصيح وهو على المنبر: يا ساري الجبل، يا ساري الجبل. قال: فقَدِم رسول الجيش فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمناهم، فإذا بصائح يصيح : يا ساري الجبل، يا ساري الجبل. فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله، فقيل لعمرَ ابنِ الخطاب: إنك كنت تصيح بذلك»[٢].

**٣- من كرامة المبشَّر بالجنة سعيد بن زيد رضي الله عنه.**

حدَّث عروةُ بن الزبير - فقيه المدينة المُكْثِر، رحمه الله: (أن امرأة ادَّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئا من أرضها، وخاصمته إلى مروان بن الحكم، فقال سعيد: أنا كنت آخذ شيئًا من أرضها بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ ؟!

---

(١) سارية بن زنيم الدُّئِلي. انظر ترجمة له في " الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣/ ٢)، وقد نقل القصة هذه في ثنايا الترجمة.

(٢) نقلها ابن حجر عن البيهقي في "الدلائل" وغيره؛ محسنًا الرواية، كما ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٧/١٣٠) وجود اسنادها وحسنه.

سمعتُه يقول: «مَن أخذ شبرًا من أرضٍ ظلمًا، طُوِّقَه إلى سبع أَرَضِينَ»، فقال له مروان: لا أسألك بيِّنة بعد هذا، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فَعَمِّ بصرَها، واقتلها في أرضها، فقال - أي عروة - فما ماتت حتى ذهب بصرها، ثم بينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت) [مسلم، والبخاري في مواضع، من غير ذكر دعاء سعيدٍ رضي الله عنه].

**٤- حفظ الصحابيِّ عاصم بن ثابت (حَمِيِّ الدَّبَر)[١]، بعد استشهاده رضي الله عنه.**

حدث أبو هريرة رضي الله عنه: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعث سريةً عينًا (لتحسُّس وتتبُّع أخبار العدو)، وأمَّر عليهم عاصمًا، فانطلقوا، حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل فتَبِعُوهم بقريب من مائة رامٍ، فاقتصُّوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد[٢]، فأحاط بهم القوم، وأعطوهم العهد والميثاق إن هم نزلوا أن لا يقتلوا منهم رجلًا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمَّة كافر - وكان رضي الله عنه قد نذر ألَّا يمسَّ كافرًا، وألَّا يمسَّه كافر -، اللهم أخبر عنَّا نبيَّك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا، ثم بعثت قريش إلى عاصم (موضع استشهاده)، ليُؤْتَوْا بشيء من جسده يعرفونه به، وكان عاصم قد قَتَل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث اللهُ عليه مِثْلَ الظُّلَّة من الدَّبَر[٣] (أي: مثل سحابةٍ من النَّحل أو ذكورها الدبابير)، فلم يقدروا منه على شيء.

---

(١) المقصود: أن عاصمًا الشهيد رضي الله عنه قد حماه الله عزَّ وجلَّ بأنْ بعث على جسده سربًا عظيمًا من الدَّبَر (زنابير النحل) حَمَتْه بعد استشهاده من أن يقربه أحد من المشركين لينالوا شيئًا من جسده؛ فكرامة عاصم استمرت حتى بعد استشهاده !!

(٢) الفدفد: موضع فيه غِلَظٌ وارتفاع. انظر: نهاية ابن الأثير(٣/ ٤٢٠).

(٣) وقد لُقِّب رحمه الله بـ (حَمِي الدَّبَر)؛ لكون الزنابير، أو الدبابير حَمَتْه من أن يصل إلى جسده المشركون، وكان رضي الله عنه قد عاهد الله تعالى ألَّا يمسَّ كافرًا، وألَّا يمسَّه كافر.

إنه حفظ الله تعالى لعبده المقرَّب عاصم، واستجابته لدعائه، وتحقيق عهده حتى حال وفاته !

**٥- أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ رضي الله عنه، تدنو الملائكة لاستماع تلاوته القرآن !**

حدَّث أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن أُسَيْدًا بينما هو ليلة يقرأ في مِرْبَدِه (موضع يُجعل فيه التمر لينشف) إذ جالت (دارت) فرسُه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ ثم جالت أيضًا، قال أسيد: فخشيتُ أن تطأ يحيى (ولدَه)، فقمت إليها فإذا مثل الظُّلَّة فوق رأسي، فيها أمثالُ السُّرُج عرجَتْ (علت) في الجوِّ، حتى ما أراها، قال: فَغَدَوْتُ على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مِرْبَدي إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير»، قال: فقرأت ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير»، قال: فقرأت، ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ابن حضير»، قال: فانصرفت، وكان يحيى (ولده) قريبًا منها، فخشيتُ أن تطأَه، فرأيت مِثْلَ الظُّلَّة فيها أمثال السُّرُج عرجَتْ في الجوِّ حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكةُ كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحَتْ يراها الناس ما تستَتِر منهم» [مسلم، والبخاري تعليقًا].

لعلَّنا نكتفي بتفصيل تلك النصوص الخمسة الشاهدات على كرامات الصحابة رضي الله عنهم، ونسرد سردًا مختصرًا بعض كرامات ثابتة، مشتهرة لهم؛ ومن ذلك:

- إضاءة عصا كلٍّ من أسيد بن حضير وعبَّاد بن بشر حال مَشْيِهما في ليلة ظلماء، منصرفَيْن من عند رسول الله ﷺ.
- أَكْلُ خبيب بن عديّ قطف عنب، وكان أسيرًا بمكة، موثقًا بالحديد، وما بمكة يومئذٍ ثمرة !

- اشتمام أنس بن النضر رضي الله عنه ريح الجنة يوم أُحد.
- تسليم الملائكة على عمران بن الحصين رضي الله عنه لما مرض ولم يَكْتَوِ، فلمَّا اكتوى تُرك التسليم عليه، فإذا ترك الكيَّ عاد التسليم عليه !
- سماع سلمانَ وأبي الدرداءَ تسبيحَ القصعة، أو ما فيها من طعام بين أيديهما.

**ب - نماذج من كرامات التابعين، رحمهم الله تعالى.**

**١- سَوْطُ مطرِّف بن عبد الله يُضيء في ليلة مظلمة !**

حدَّث يزيد بن عبد الله (أخو مطرِّف)، فقال: كان مطرِّف يبدو (يخرج عادة إلى البادية)، فإذا كان يوم الجمعة جاء ليشهدَ الجمعة، فبينما هو يسير ذات ليلةٍ، سطع من رأس سوطه نور له شعبتان، فقال لابنه عبد الله وهو خلفه: يا عبد الله أتراني لو أصبحتُ فحدَّثت الناسَ بهذا كانوا يصدقوني؟ قال: فلما أصبح ذهب (أي: النور). [طبقات ابن سعد (٧/ ١٤٤)، ومصنَّف الصنعاني (١١ / ٢٨١)].

**٢- الخَوْلَانيُّ أبو مسلم (عبد الله بن ثُوَب) لا يحترق بالنار !**

بإسناد الحافظ إلى أبي طاهر السِّلَفِي، عن شرحبيل بن مسلم: أن الأسود بن قيس العنسي الكذَّاب لما ادَّعى النبوَّة باليمن بعث إلى أبي مسلم الخولاني، فلما جاءه قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمَّدًا رسول الله؟ قال: نعم، فردَّد ذلك عليه، فأمر بنار عظيمة فأُجِّجت فألقى فيها أبا مسلم فلم تضره، فقيل: انْفِه عنك وإلا أفسد عليك مَن تَبِعَك فأمره بالرحيل، فأتى أبو مسلم المدينةَ، وقد توفِّي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، واستُخْلِفَ أبو بكر رضي الله عنه، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، فقام يصلِّي إلى سارية، فبَصُرَ به عمرُ، فقام إليه،

فقال: ممَّن الرجل؟ فقال: من أهل اليمن، قال: فلعلَّك الذي حرقه الكذَّاب بالنار، قال: ذلك عبدُ الله بنُ ثُوَب، قال: نشدْتُك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم، فاعتنقه عمر، ثم بكى، ثم ذهب به حتى أَجْلَسَه فيما بينه وبين أبي بكر، فقال: الحمد لله الذي لم يُمِتْنِي حتى أراني في أمَّة محمَّدٍ ﷺ مَن فعل به كما فعل بإبراهيم ﷺ خليل الرحمن.

قلتُ - القائل النوويُّ -: هذا من أجلِّ الكرامات، وأَنْفَسِ الأحوال الباهرات. ثم ذكر كراماتٍ لأبي مسلم رحمه الله مشهودات، يضيق المقام عن ذكرها[١].

وقد أثنى عليه النوويُّ بقوله: (كان من كبار التابعين، وعُبَّادِهم وصالحيهم، وأهل الكرامات الظاهرات، والأحوال السَّنِيَّةِ المتظاهرات)[٢].

**٣- أكفان أويس بن عامر القرني المرادي جاهزة له وقبره محفور له، قبل وفاته!**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولمَّا مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانًا لم تكن معه قبلُ، ووجدوا له قبرًا محفورًا فيه لَحْدٌ في صخرة، فدفنوه فيه، وكفَّنوه في تلك الأثواب)[٣].

---

(١) انظر: بستان العارفين، للنووي ص٧١.

(٢) المرجع المتقدم، ص ٧٠.

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص١٦٤. وقد اختص رحمه الله فصلًا لكرامات الصحابة والتابعين، فطالعه تستفد؛ فقد أوعب رحمه الله بإيجاز كراماتٍ عديدةً للتابعين، منهم: عامر بن عبدالله بن عبد قيس، والحسن البصري، وصِلَةُ بن أشيم العدوي أبو الصهباء، وسعيد بن المسيَّب، وعمرو بن عتبة السلمي، ومُطَرِّفُ بن عبد الله بن الشِّخِّير، والأحنف بن قيس، وإبراهيم التيمي، وعتبة بن أبان الغلام، وعبد الواحد بن زيد البصري، رحم الله الجميع.

وأويسٌ القرني رحمه الله من كرامته التي لا تُلحق:

إخبار النبيِّ ﷺ أن هذا العبد الصالح لو أقسم على الله لأبرَّه، وإرشاده ﷺ عمرَ رضي الله عنه أن يستغفر له إنْ لَقِيَه ! فاجتمع له رحمه الله أن يكون من دلائل النبوة وبراهينها في الإخبار بالمغيَّبات بإطْلاع الله تعالى نبيَّه عليها، وشهادة النبيِّ ﷺ له بإجابة الدعاء، حتى لغيره إنْ دعا له ! مع تواضع جمٍّ، وعظيم إخلاص، وقدوة في الزهد، وعلم في التقوى، مع شهادة رسول الله ﷺ له بصبره على ابتلاء البرص، حتى عافاه الله تعالى منه، وأبقى في بدنه مثل موضع درهم منه؛ ليحدِّث بنعمة ربِّه عليه، وجليل فضله عليه، ففي مرويِّ أحمد في "مسنده" قولُ أويس رحمه الله: (فدعوتُ اللهَ عز وجل فأَذْهَبَه عني إلا موضع الدرهم من سُرَّتي؛ لأَذْكُرَ به ربِّي)، ولتكون علامة دقيقة على صدق النبوة؛ بذكر رسول الله ﷺ لها !

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد (الجماعة من الناس من البلاد، يمدُّون جيش المسلمين) أهل اليمن، سألهم: أفيكم أُويس ابن عامر؟ حتى أتى على أُويس فقال: أنت أُويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: مِن مُراد، ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن؛ مِن مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بَرٌّ بها، لو أَقسم على الله لأَبَرَّه، قال: فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل، فاستغفِرْ لي، فاستَغفَرَ له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب إلى عامِلِها؟ قال: أكون في غَبْرَاءِ الناس (عامَّتهم، وفقرائهم) أَحَبُّ إليَّ، قال: فلمَّا كان

من العام المقبل حجَّ رجل من أشرافهم، فوافق عمرَ (لقِيَه) فسأله عن أويس، قال: تركتُه رَثَّ البيت، قليل المتاع» [مسلم].

بذا نختم تطوافنا في العيش في رحاب أهل الولاية، وما ذاك إلا غيض من فيض كرامات سلفنا الصالح، نقتصر عليه لا نتعداه؛ حيث إن المرويَّ في كرامات التابعين، وتابعيهم جمٌّ غفير، ويحتاج بعضه إلى تقصٍّ في صحة إسناده، وليس مقصود المقام - هنا -، سوى ذِكْرِ نماذجَ ثابتةٍ يقتدي بأهلها المتقرِّبون، لينسجوا على منوالهم في الإخلاص، والزهد، وطلب الآخرة، والجِدَّ في العبادة، وعلوِّ الهمة في ولوج أبواب الخير، والتنويع فيها، طلبًا لرضى الله تعالى، وبذلًا للوسع في تحقيق الحبِّ له سبحانه، مع الاستدامة في التقرُّب بالاستكثار من النوافل؛ رجاء أن يحبَّهم ربُّهم سبحانه، وأن يكونوا في حفظه وعنايته عزَّ جارُه، وجلَّ ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه.





# خاتمة

## (سائلًا اللهَ حُسْنَها)

الحمد لله مُولِي النِّعم، مَن أفاض على قلوب أوليائه سوابغَ الكرم، له - سبحانه - تمامُ الحمد أنْ يسَّر إتمام هذا الكتاب؛ كتابٌ حوى - بفضل الله - معالمَ في طريق التقرُّب، يستدلُّ بها مَن أراد السلوك إلى مرضاة ربِّه، بسبيل بيِّن يسير، لا يُعْجِزُ أحدًا سلوكُه، سائلًا ربي - سبحانه - هدايةَ توفيقٍ إلى السير إليه مع عباده السائرين، وأن ييسِّر لي ترقِّيًا في مدارج السالكين، وتنافسًا معهم في طلب الزُّلفى لديه، وأن يجعل كتابي هذا في حيِّز القَبول، إنه - سبحانه - خير مسؤول، وهو - بفضله - يَهَبُ كلَّ مأمول.

هذا، وإني أُحسن ظنًا بمن اطَّلع على كتابي هذا، فأفاد منه ولو يسيرًا، أن يُحْسِنَ ظنًّا بأخيه، ويعلمَ أن هذا جهد المقلِّ؛ فما وجد فيه من صواب فمن الله، وما كان غير ذلك فليعذر أخاه، وليصلح ما أمكنه مسعاه.

**فانظر إليها نَظَرَ المُستحسِنِ وأَحْسِنِ الظنَّ بها وحَسِّنِ**
**وإنْ تَجِدْ عيبًا فَسُدَّ الخللا فجَلَّ مَن لا عيبَ فيه وعلا**

وختامًا، أسأل الله ﷻ حُسْنَ الختام، مصلِّيًا ومُسلِّمًا على عبده ورسوله محمَّدٍ خيرِ الأنام، هادي المتقرِّبين إلى سبيل الرشاد، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم التَّناد.

كتبه راجي عفو ربِّ العباد

**د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي**



# قائمة المصادر والمراجع

(أ)

- الأدب المفرد، البخاري، محمد بن إسماعيل، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، الطبعة السادسة ١٣٠٥هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق - مصر.
- الإصابة في تمييز الصحابة، العسقلاني، أحمد بن حجر تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوَّض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دط، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت - لبنان.

(ب)

- البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تحقيق د. محيي الدين ديب مستو، وآخرون، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، دار ابن كثير، دمشق - سوريا.
- بستان العارفين، النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، بتحقق محمد الحجار، الطبعة السادسة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان.

**(ت)**

- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، محمد مرتضى، تحقيق جماعة من المختصِّين، دط، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، من إصدارات وزارة الإرشاد - الكويت.

- تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد (التحرير والتنوير = تفسير ابن عاشور)، ابن عاشور محمد الطاهر، دط، ١٩٨٤م، الدار التونسية للنشر، تونس.

- التسهيل لعلوم التنزيل، (تفسير ابن جُزي)، الكلبي، محمد بن أحمد، بتحقيق د. عبد الله الخالدي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت - لبنان.

- التعريفات، الجُرجاني، علي بن محمد، ضبط وتصحيح جماعة من العلماء، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ابن كثير أبو الفداء، إسماعيل بن عمر، وضع حواشيَه وعلَّق عليه محمد حسن شمس الدين، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- التفسير القرآني للقرآن، الخطيب عبد الكريم، دط، دت، دار الفكر العربي، مطبعة السنَّة المحمَّدية، القاهرة - مصر.

- تلبيس إبليس، ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار الفكر، بيروت - لبنان.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، السعدي عبد الرحمن بن ناصر، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ، دار ابن الجوزي، الرياض - المملكة العربية السعودية.

(ج)

- جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، الطبعة الرابعة، **١٤٢١**هـ **٢٠٠٥**م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- جامع الرسائل، ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، **١٤٢٢**هـ - **٢٠٠١**م، دار العطاء، الرياض - المملكة العربية السعودية.
- جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسينَ حديثًا من جوامع الكَلِم، ابن رجب الحنبلي، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، وصبحي محمَّد رمضان، الطبعة الأولى **١٤٢٤**هـ - **٢٠٠٤**م، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية.

(د)

- الدرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر، دط، دت، دار الفكر، بيروت - لبنان.
- دلائل النبوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، وثَّق أصوله وخرَّج حديثه وعلَّق عليه د. عبد المعطي قلعه جي، الطبعة الأولى **١٤٠٥**هـ - **١٩٨٥**م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(ر)

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الآلوسي)، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، ضبطه وصحَّحه علي عطية، الطبعة الأولى **١٤١٥**هـ - **١٩٩٤**م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، دار ابن حزم، بيروت - لبنان.

(ز)

- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(س)

- سنن الترمذي (الجامع المختصر من السُّنن عن رسول الله ﷺ، ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل)، الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى، تحقيق بشار عوَّاد معروف، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان.

(ص)

- صحيح البخاري (الجامع المُسْنَدُ الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيَّامه)، البخاري، أبو عبد الله محمَّد بن اسماعيل، تحقيق د. مصطفى البغا، الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق - سوريا.

- صحيح مسلم (المُسْنَدُ الصحيح المختصر من السُّنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ)، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم ابن الحجَّاج بن مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دط، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة - مصر.

- صحيح مسلم بشرح النووي (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج)، النووي، يحيى بن شرف، إعداد مجموعة أساتذة متخصِّصين، بإشراف علي عبد الحميد، دط، ١٤١٤هـ، دار الخير - دمشق، مكتبة الورَّاق - الرياض.

(ط)

- الطبقات الكبرى، (طبقات ابن سعد)، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيِّم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، دار ابن حزم، بيروت - لبنان.

(ع)

- العبودية، ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، تحقيق محمد زهير الشاويش، الطبعة السابعة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد، دط، دت، إدارة الطباعة المنيرية - مصر.

(ف)

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ - ١٣٩٠م، المكتبة السلفية - مصر.
- فتح القدير الجامع بين فَنَّيِ الرواية والدِّراية من علم التفسير، الشوكاني محمد بن علي، ضبطه وصحَّحه أحمد عبد السلام، دط، دت، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- فتح المنَّان، تتمَّة منهاج التأسيس، الآلوسي محمود شكري، مراجعة وتصحيح محمد حامد الفقي، دط، مطبعة أنصار السنَّة، ١٣٦٦هـ،

مطبوع مع كتاب: "منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود ابن جرجيس"، لعبد اللطيف آل الشيخ.

- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دط، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، مكتبة دار البيان، دمشق - سوريا.

(ك)

- الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري محمود بن عمر، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الريَّان للتراث - القاهرة، دار الكتاب العربي - بيروت.

(ل)

- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم ابن علي، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ، دار صادر - بيروت.

- لوامع الأنوار البهيَّة، وسواطع الأسرار الأثريَّة لشرح الدُّرة المُضِيَّة في عقد الفرقة المرضيَّة، السفَّاريني أبو العون محمَّد بن أحمد بن سالم، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، مؤسسة الخافقين، دمشق - سوريا.

(م)

- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم، دط، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية.

- المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، أبو محمد عبدالحق بن غالب، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبدالسلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- مختار الصِّحاح، زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، الحنفي الرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، الطبعة الخامسة **١٤٢٠**هـ - **١٩٩٩**م، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان.

- مختصر منهاج القاصدين، نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن، ابن قدامة المقدسي، علَّق عليه شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط، دط **١٣٩٨**هـ - **١٩٧٨**م، مكتبة دار البيان، دمشق - سوريا.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيِّم الجوزية، تحقيق عبدالعزيز بن ناصر الجُلَيِّل، الطبعة الثانية **١٤٢٩**هـ - **٢٠٠٨**م، دار طيبة، الرياض - المملكة العربية السعودية.

- مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق السيد أبو المعاطي النوري، الطبعة الأولى، **١٤١٩**هـ - **١٩٩٨**م، عالم الكتب، بيروت - لبنان.

- المصنَّف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية **١٤٠٣**هـ - **١٩٨٣**م، نشر المجلس العلمي - الهند، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.

- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق عبدالرزاق المهدي، الطبعة الأولى **١٤٢٠**هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الأولى **١٣٦٩**هـ، عيسى البابي الحلبي - مصر.

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، الطبعة الأولى، **١٤٢٤**هـ - **٢٠٠٣**م، دار ابن حزم، بيروت - لبنان.
- المُفْهِم؛ لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، أبو العباس أحمد بن عمر، تحقيق الحسني أبو فرحة وآخرون، دط **١٤١٣**هـ، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت.
- منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم (ابن تيمية الحرَّاني)، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى **١٤٠٦**هـ - **١٩٨٦**م، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض - المملكة العربية السعودية.
- المنهاج شرحُ صحيح مسلم بن الحجَّاج، النووي، محيي الدين يحيى ابن شرف، الطبعة الثالثة **١٣٩٨**هـ، دار الفكر - بيروت.
- الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى **١٤١٧**هـ - **١٩٩٧**م، دار ابن عفَّان، القاهرة - مصر.

**(ن)**

- النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزري ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، دط، **١٣٩٩**هـ - **١٩٧٩**م، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.



# المحتويات

الموضوع | الصفحة

**الفصل الثالث**

بحمد الله تم



# صدر للمؤلف

١- رغبــــة . طبعة ثنائية اللغة : (عربي / إنجليزي)
٢- دليلك إلى رغبة. (عربي - إنجليزي)
٣- الزلفي (عربي)
٤- الجريسي سيرة ومسيرة. (عربي - إنجليزي)
٥- عائلة الجريسي. (عربي - إنجليزي)
٦- أخلاق الملك عبدالعزيز. (عربي - إنجليزي)
٧- من وثائق العلاقات السعودية المصرية في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود. (مجلد ١ - ٣)
٨- إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري. (عربي - إنجليزي - فرنسي)
٩- القيادة الإدارية من المنظور الإسلامي والإداري. (عربي - إنجليزي)
١٠- أخلاقيات الإدارة من المنظور الإسلامي والإداري. (عربي - إنجليزي)
١١- سلوك المستهلك: دراسة تحليلية للقرارات الشرائية للأسرة السعودية. (نموذج تطبيقي على شراء الحاسب الآلي) (عربي - إنجليزي)
١٢- العصبية القبلية من المنظور الإسلامي. (عربي - إنجليزي)
١٣- الفن : الواقع والمأمول.
١٤- فضل تعدد الزوجات. (عربي - إنجليزي - فرنسي)
١٥- نساؤنا إلى أين ؟
١٦- انحراف الشباب وطرق العلاج على ضوء الكتاب والسنة.
١٧- التحصين من كيد الشياطين. (عربي - إنجليزي)
١٨- الحذر من السحر. (عربي - إنجليزي)
١٩- العلاج والرُّقى بما صحَّ عن المصطفى ﷺ.
٢٠- فتاوى علماء البلد الحرام. (عربي - إنجليزي - فرنسي - أوردو)
٢١- معلِّم التجويد
٢٢- الصوم جُنَّة (عربي - إنجليزي)

٢٣- خُلُق المسلم
٢٤- تيسير السيرة
٢٥- بر الوالدين
٢٦- الصلاة نور
٢٧- الزكاة
٢٨- رحلة التقرب

**سلسلة «زاد المؤمن»، وقد صدر منها الكتب الآتية:**

| | | |
|---|---|---|
| **٢٩- منتقى الأذكار** | (١) | (عربي - إنجليزي - فرنسي) |
| **٣٠- جوامع الدعاء** | (٢) | (عربي - إنجليزي - فرنسي) |
| **٣١- وِرد اليوم والليلة** | (٣) | (عربي - إنجليزي - فرنسي) |
| **٣٢- ارق نفسك وأهلك بنفسك** | (٤) | (عربي - إنجليزي) |
| **٣٣- الرقية الشرعية** | (٥) | |
| **٣٤- رقية الأبرار** | (٦) | |
| **٣٥- دليل المعتمر** | (٧) | (عربي - إنجليزي) |
| **٣٦- دليل الحاجّ** | (٨) | (عربي - إنجليزي) |
| **٣٧- الجوهرة في العلاج بالرقية الشرعية** | (٩) | |

**كتب التحقيق بالاشتراك مع الشيخ أ. د/ سعد بن عبدالله الحميِّد:**

٣٨- **كتاب «العلل»، لابن أبي حاتم.**
٣٩- **المعجم الكبير، للطبراني** (مسند النعمان بن بشير - قطعة من المجلد ٢١).
٤٠- **المعجم الكبير، للطبراني** (المجلد ١٣ و١٤).
٤١- **سؤالات السُّلَمي للدارقطني.**
٤٢- **سنن سعيد بن منصور (بقية التفسير).**
٤٣- **تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي.**
٤٤- **آفة أصحاب الحديث والرد على عبدالمغيث، لابن الجوزي.**